يا أبا ذر

شذرات في شرح جانب من وصية
الرسول الأكرم ﷺ
لأبي ذر الغفاري رض



دار العلوم

يا أبا ذر

إضاءات في شرح جانب من
وصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم
لأبي ذر الغفاري رحمة الله .

سماحة آية الله العظمى
السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله

ترجمة: علي ضميري

الناشر: ....

المطبعة: ....

الطبعة الأولى: ....

عدد النسخ: ....

ردمك: ....

WWW.S-ALSHIRAZI.COM NASHR@S-ALSHIRAZI.COM

بسم الله الرحمن الرحیم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين

الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الذي بين يديك – عزيزي القارئ – عبارة عن مجموعة من سلسلة دروس الأخلاق الأسبوعيّة التي كان سماحة المرجع الديني الكبير آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله قد ألقاها على طلاّب العلوم الدينية في مدينة قم المقدّسة.

اختصّت هذه المجموعة بشرح نصوص مباركة من وصيّة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله لصاحبه الجليل أبي ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه.

نأمل أن تشكّل هذه الدروس المباركة مساهمة عقائدية وثقافية وتربوية جادّة في توضيح ملامح الهداية والاستقامة التي يفترض بالإنسان – كإنسان – أن يقتفي أثرها، لتُجنِّبه السقوط في العديد من المطبّات، كما تمكّنه من اقتحام العقبات الصعبة، فيهتدي إلى حيث الإيمان، ويعود إلى فطرته السليمة متترّساً بالثقافة المحمدية الأصيلة، ويكتسب القدرة على تمحيص الغثّ من السمين من بين ما يبثّه أو يعلن عنه الإعلام الهدّام بكلّ أشكاله.

ونتوجّه بالشكر الجزيل والامتنان الفائق لكلّ الأصدقاء والأعزّاء الذين ساهموا في إنجاز مشروع هذا الكتاب القيّم وإخراجه إلى النور. لاسيّما الأستاذ علي ضميري الذي قام بترجمة النص من الفارسية، والسيد خلدون العسكري الذي نهض بمهمة التحقيق، والأخ عبد الرضا افتخاري الذي قام بمراجعة النص وتقويمه.

ومن الله التوفيق

مؤسسة الرسول الأكرم الثقافية

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

على امتداد حياته المليئة بالبركة والرحمة، زوّد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعض أصحابه بمواعظ ووصايا، كان كلّ منها بحراً من الحكمة والموعظة الحسنة.

إحدى هذه المواعظ هي وصيّة النبيّ صلوات الله عليه وآله لصاحبه الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الزاخرة بالمضامين الأخلاقية الرفيعة والبنّاءة.

سند الرواية

تمتاز هذه الوصية بأمور، منها أنّها من الوصايا الطوال، ومنها أنّها وصية زاخرة بالمضامين الرفيعة؛ الأمر الذي يُعدّ بحدّ ذاته دليلاً على صدورها عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، مضافاً إلى أنّها – من حيث السند – تعدّ من النصوص المعتبرة، حيث رواها العديد من أعاظم العلماء:

منهم الشيخ الطبرسي[1] في كتابه الشهير (مكارم الأخلاق). فمع أنّ الروايات التي يرويها في هذا الكتاب مرسلة في الغالب ومذكورة بحذف السند، ولكنّه رحمه الله نقل هذه الرواية بعدّة أسانيد[2].

كما نقل الوصيّة الأمير الزاهد ورّام بن أبي فراس[3] في كتابه المعروف بـ (مجموعة ورّام)[4]. علماً أنّ هذا العالم الجليل يُعدّ ثقةً عند الفقهاء، وأقواله وأفعاله معتبرة لديهم، حتى أنّ العديد من أعاظم الشيعة اعتبروا سيرته حجّة، في بعض الموارد التي لم تبلغهم فيها رواية عن المعصوم.

فمثلاً جرت سيرة المتشرّعة على وضع فصّ عقيق في فم الميّت، مع أنّه لم ترد في كتب الأحاديث رواية على ذلك، والدليل أنّ صاحب «الحدائق»[5] وصاحب «المستدرك»[6] لم يذكرا شيئاً عن هذه المسألة.

ولكن مع ذلك نلاحظ أنّ صاحب «الجواهر»[7] وصاحب «العروة»[8] ذكرا هذه المسألة في كتابيهما «جواهر الكلام» و«العروة الوثقى» باعتبارها مسألة مستحبّة.

ونحن نعلم أنّ استحباب عمل ما لابدّ أن يكون مسنداً إلى المعصوم سلام الله عليه قولاً أو عملاً أو تقريراً، ولكن فيما يخصّ هذه المسألة، فإنّ السند الوحيد هو تصريح السيد ابن طاووس[9] الذي قال فيه:

«وكان جدّي ورّام بن أبي فراس قدّس الله روحه، وهو ممن يُقتدى بفعله، قد أوصى أن يجعل في فمه بعد وفاته فصّ عقيق عليه أسماء أئمّته صلوات الله عليهم. وقد تقبّل الفقهاء التالون له استحباب هذا العمل دون أن يصرّحوا بأن لا دليل لهم عليه، وذلك لأنّ نقل ورّام بمثابة الدليل والحجّة لديهم»[10].

كما قام الفقهاء بنقل مقاطع من هذه الوصية في كتبهم واستدلّوا بها على أنّها من وصية النبي صلّى الله عليه وآله لأبي ذرّ؛ فقد أشار المحقّق الحلّي[11] في كتابه (المعتبر) إلى أجزاء من الوصيّة النبويّة الشريفة لأبي ذرّ، واستدلّ بها وصرّح بأنّها وصيّة النبيّ صلوات الله عليه وآله. والمحقّق رحمه الله معروف بالدقّة العلميّة الكبيرة ومشهور بجلال المقام ورفعة المنزلة.

أمّا العلاّمة الحلّي[12]؛ فقد تطرّق إلى ذكر هذه الوصيّة الشريفة في مواقع عديدة وكتب متعدّدة.

كما نقل كاشف اللثام[13] في كتابه المعروف (كشف اللثام) مقتطفات من هذه الوصيّة ونسبها إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

أمّا المحقّق القدير الحاج رضا الهمداني[14] فقد نسب هذه الوصيّة إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بعد أن ذكرها في جملة من كتبه.

كما ذكرها العلاّمة المجلسي في كتابه (عين الحياة) قائلاً: «إنّ هذه الوصيّة من جملة الأخبار المشهورة»[15].

سند الرواية في مكارم الأخلاق

نقل سند هذه الوصيّة الشيخ الجليل رضي الدين، أبو نصر، الحسن بن الفضل الطبرسي في كتابه «مكارم الأخلاق» قال:

«يقول مولاي أبي طوّل الله عمره الفضل بن الحسن: هذه الأوراق من وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري، التي أخبرني بها الشيخ المفيد أبو الوفاء، عبد الجبار بن عبد الله المغربي الرازي، والشيخ الأجلّ الحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه رحمه الله إجازة، قالا: أملى علينا الشيخ الأجلّ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وأخبرني بذلك الشيخ العالم الإمام الحسين بن الفتح الواعظ الجرجاني في مشهد الرضا سلام الله عليه، قال: أخبرنا الشيخ أبو جعفر رحمه الله قال: حدّثنا أبو الحسين رجاء بن يحيى العبرتائي الكاتب سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وفيها مات، قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن شحون، قال: حدّثني أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي، عن أبي الأسود [16] ...» [17] .

منزلة أبي ذر

كان أبو ذر [18] رحمه الله رجلاً عارفاً فطناً، كما نلاحظه في هذه الوصيّة؛ حيث اغتنم فرصة خلوة المسجد للاستفادة من النبيّ صلّى الله عليه وآله. وكان موضع احترام وتقدير النبيّ وأهل بيته الطيّبين الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم.

وطبقاً لرأي العلاّمة المجلسي رحمه الله الوارد في كتاب «عين الحياة» فإنّ ما يستفاد من سياق الأخبار والروايات الشريفة كون سلمان المحمّدي وأبي ذر الغفاري والمقداد هم أفضل ثلّة بين أصحاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، بعد طبقة المعصومين الأربعة عشر (الذين لا يقاس الناس بهم) وبعد ذريّتهم الطاهرة مثل السيّدة زينب الكبرى وأبي الفضل العباس عليهما السلام.

ولكي نعي عظمة منزلة أبي ذر رضوان الله تعالى عليه، علينا التدبّر في صدر هذه الوصيّة النبويّة الشريفة، حيث جاء فيها:

«أكرم بك [19] يا أبا ذر، إنّك منّا [20] أهل البيت».

ثمّ إنّ النبيّ الأعظم طالما كرّر في مقاطع وصيّته الشريفة قول: «يا أبا ذر» فقد تكرر حوالي مئة وخمسين مرّة؛ [21] ما يعكس مدى قرب هذا الصحابيّ الجليل من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

إنّ سيرة هذا الصحابي الكبير جديرة بالمطالعة والبحث والتأمّل، وحقّ أن تكون نموذجاً وقدوة طيّبة.

لقد توصّل أبو ذر إلى هذه المنزلة الرفيعة لأنّه كان يتابع النبيّ الأعظم قولاً وعملاً. ولا شكّ أنّ هذه المتابعة تعدّ إنجازاً صعباً؛ ذلك لأنّ الإنسان – في هذه الحالة – سيكون بحاجة إلى توفير

عناصر القوّة ليتسنّى له مواجهة شيطانه الداخلي (النفسي) والخارجي (الاجتماعي) روماً في الانتصار عليهما.

فالفرد إذا ما أراد العمل بوصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله هذه – ولو ببند واحد منها – طبقاً لمستوى وعيه وفهمه وقابليته فإنّ الشيطان سرعان ما ينبري إلى إعاقته عن ذلك، كما أنّ الشهوات ستبدأ فعلها لتقييده. ولكنّ المؤمن الحذر مَن يطبّق تلكم المواعظ الواردة في الوصيّة بالتدريج ليواجه الشيطان ونفسه الأمّارة بالسوء، ولا شكّ أنّ هذه المهمّة ممكنة الإنجاز رغم صعوبتها.

إنّنا نعلم أنّ مرتبة العصمة ليست في متناول الجميع، وأنّها خاصّة بجملة من الأشخاص معلومين، ولكنّ المراتب التالية للعصمة ممكنة للجميع، ولم يجعلها الله تعالى حكراً على أحد.

أجل، ما يميّز الصحابيّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه أنّه كان بمستطاعه لقاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في أيّ وقت يشاء، أمّا إنسان فترتنا الراهنة فيفتقر إلى هذه الخاصيّة، ولكن ذلك ليس مبرّراً لئلاّ يكون كأبي ذر. فالمؤكّد في الأمر قدرة الفرد المؤمن على الارتقاء إلى هذه المنزلة السامية، فإنّ أبا ذر قضى ردحاً من حياته مشركاً، ومع ذلك بلغ ما بلغ لأنه قرّر لنفسه أن يكون أبا ذر الصحابيّ المؤمن العظيم.

ولنا أن نتساءل عمّا قام به ورّام بن أبي فراس أو والد الشيخ الصدوق (أبو الحسن علي بن بابويه) [22] من أعمال لتكون فتاواهما بمثابة السند المعتبر والمقبول لدى الفقهاء؟

إنهما لم يقوما بشيءٍ غير العمل بأوامر أولياء النعم السادة المعصومين سلام الله عليهم.

وعليه؛ فإنّ الإنسان إذا ما قرّر اتّباع أوامر المولى فسيلمس حقّاً ما يتبع ذلك من توفيق ربّانيّ، ولاشكّ أن قدرة الله وتوفيقه أكبر وأقوى من الشهوة والشيطان، فإذا ما اعتمد الفرد على ربّه وصمّم على المضيّ في هذا الطريق القويم، فسيؤيّده الله تعالى ولن يسمح للنفس الأمّارة أو الشيطان أن يتغلّبا عليه. فالله سبحانه وعد بالنصر والتوفيق عبادَه المخلصين.

إنّ الله تعالى جعل الدنيا دار بلاء وامتحان، كما خلق الإنسان حرّاً مختاراً، ليتبيّن ما الذي سيقوم به.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) [23]

البداية

نقل هذه الوصية مع أسانيدها العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار؛ قال:

قال أبو الأسود الدؤلي:

قدمت الربذة، فدخلت على أبي ذر، جندب بن جنادة رضي الله عنه، فحدّثني أبو ذر قال:

دخلت ذات يوم في صدر نهاره على رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجده، فلم أرَ في المسجد أحداً من الناس إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ إلى جانبه جالس، فاغتنمت خلوة المسجد، فقلت:

يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، أوصني بوصية ينفعني الله بها.

فقال: «**نعم، وأكرِم بك يا أبا ذر، إنّك منّا أهل البيت، وإنّي موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنّك إن حفظتها، كان لك بها كِفلان**[24] ...»

إنّه لمن النادر أن يتفق فيكون النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله جالساً أو ماشياً أو واقفاً منفرداً في المدينة، فإنّ الناس كانوا دائمي المراجعة له لإدارة شؤونهم الماديّة والمعنويّة، وكان صلى الله عليه وآله يستقبل الناس جماعات أو فرادى بثغر باسم وخُلُق عظيم، ليعلّمهم ويزكّيهم ويحلّ مشاكلهم.

فقد تكون هذه الفرصة الثمينة التي تحدّث عنها أبو ذر رحمه الله – حيث رأى النبيّ منفرداً – الفرصة الوحيدة خلال صحبته فاغتنمها وطلب من النبي صلى الله عليه وآله أن يوصيه بما ينفعه بها الله تعالى.

وقد جاء في الروايات حثّ الإنسان المؤمن على اقتناص فرصة رؤية العالم للسؤال منه عن أحكام الدين، وأنّ فيه الثواب الجزيل[25]. لذلك؛ فإنّ على المؤمنين أن يحرصوا شديد الحرص على

الاستفادة العلميّة من العلماء، وأن لا يضيّعوا أعمارهم في لهو الحياة ولعبها.

كيف نعبد الله تعالى؟!

قال صلى الله عليه وآله وسلم

«يا أباذر، اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه، فإنّه يراك.

واعلم أنّ أوّل عبادة الله المعرفة به، فهو الأول قبل كلّ شيءٍ، فلا شيء قبله، والفرد فلا ثاني له، والباقي لا إلى غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيءٍ، وهو الله اللطيف الخبير، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

ثمّ الإيمان بي والإقرار بأنّ الله تعالى أرسلني إلى كافّة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ثم حبّ أهل بيتي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً».

إنّ الرؤية إما أن تكون بالعين الظاهرية، أو بعين العقل والإدراك العقلي. والمراد هنا بالرؤية أن تكون بالعين الباطنية والعقل؛ يقول الإمام الحسين سلام الله عليه مخاطباً الله تعالى: «عميتْ عينٌ لا تراك عليها رقيباً»[26]

أي لا خير في إدراك العقول لما حولها إن لم تدرك مصوّرها. فالعمى أولى لها من الإدراك والشعور.

فالمقصود بالعين في قول الإمام سلام الله عليه ليست العين المادّية المنصوبة في الرأس، لأنّ هذه العين عاجزة عن رؤية الربّ تعالى.

إذاً الإنسان يتمتّع بنوع رؤية باصرة ورؤية معنويّة كاشفة.

ومن خصائص العين الباصرة كثرة الخطأ، علماً أنّ «الرؤية بالعقل» قد تخطئ هي الأخرى أحياناً، ولكن خطأها أقلّ بكثير من خطأ العين المادّية، وأنّ البصيرة موجودة لدى جميع الناس

ولكنّها بدرجات متفاوتة.

وبهذه البصيرة – بمستواها الراقي، طبعاً مع شرط التربية والمحاسبة الدقيقة والمتواصلة – يمكن إدراك الله عزّ اسمه، وبهذا الإدراك تتمّ عبادة الله أيضاً.

العبادة والمعرفة

في بعض كتب التفسير في ذيل قوله تبارك وتعالى: (وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاّ لِيَعبُدُونَ) [27] عبارة: (أي ليعرفون) مسبوقة بكلمة (رويَ). وقد تكرّرت هذه العبارة إلى حدٍّ أصبحت فيه من المرتكزات الذهنية.

وفي معرض الفحص والتحقيق لتبيان حقيقه الأمر، وفي ورود رواية كهذه من عدمه، لم يتمّ العثور عليها في كتب الروايات والأحاديث، إلا في كتاب منسوب إلى أحد صوفيّة السنّة. وعلى ذلك؛ فإنّ العبارة لا قيمة لها من حيث السند، علماً أنّ مضمونها ومفهومها يتضمّن المغالطة التي تنتهي إلى إشاعة التساهل غير المقبول في الدين. فهذه العبارة تساوي بين مفهومي العبادة والمعرفة، مع أنّ بين مفهومي هذين المصطلحين تبايناً ماهوياً، أي إنهما يختلفان في ماهيّتهما.

وقد ورد في رواية عن مولانا الإمام الحسين سلام الله عليه:

«إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه، عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه».

فقال رجل: يابن رسول الله، بأبي أنت وأمّي، فما معرفة الله؟ قال: «معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته» [28].

إنّ من الممكن تصوّر كون اجترار عبارة «ليعبدون، أي ليعرفون» من مفهوم الرواية أعلاه، ولكن لا بد من الالتفات إلى وجود الكثير من الاصطلاحات والمفاهيم، وإلى أنّها مرتبطة فيما بينها، وأنّ هذا الترابط لا يعني بالضرورة التجانس والعينية. فحينما يقال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» [29] فإنّه يختلف عن القول: إنّ الإيمان هو عين الصبر، أو القول: إنّ جسم الإنسان هو عين رأسه.

وكذلك حينما يقال: إنّ أصول الدين هي كلّ الدين، فلا يمكن تصوّر أنّ الدين هو عين الأصول؛ ذلك لأنّ الدين يتألّف من أصول وفروع.

إذاً، فالعبادة غير ذات فائدة دون المعرفة، كما أنّ المعرفة التي لا تستتبعها العبادة ناقصة، كما هي العلاقة بين الصلاة والطهارة؛ إذ لا صلاة بلا طهارة، ولا تنفع الطهارة تارك الصلاة.

قال النبي الأكرم – في هذه الوصية – صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «أوّل عبادة الله المعرفة به». وقال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «أوّل الدين معرفته»[30]

من هذين الحديثين الشريفين يتبيّن الفرق بين العبادة والمعرفة؛ وهي أن المعرفة أوّل شرط للعبادة، وأنّ بها تبدأ العبادة.

إنّ العبادة إذا لم تقترن بالمعرفة، أصبحت عامل ضرر، وأخرجت العابد عن جادّة الصواب، فيرى نفسه منحرفاً نحو الشرك والرياء. والعابد على هذا النحو سيعتقد بالشرك توحيداً وبالذنب ثواباً، وستكون حتى عبادة الصنم حسب وجهة نظره عبادة لله، وهكذا تكون العبادة له بمثابة الطعام المسموم، فتصيب الروح بالمرض، بدلاً من أن تكون عامل إنقاذ للروح والنفس، وتغرق صاحبها في الضلال وتعب الروح ومرضها.

إنّ العبادة تعني العبودية، وهي لا تكون سوى للخالق والمولى الذي يتوقّف تمام الوجود على لطفه. فهو المولى والخالق، ونحن جميعاً عبيده.

إذاً يلزم العبد أن يعي مفهوم العبوديّة؛ لتتكامل عبوديّته. وحينما يتّضح معنى العبودية يفهم العابد بأنّ كلّ الوجود وحيثيّاته وشؤونه متعلّقة بالمعبود، حتّى هذه العبادة التي يزاولها إنّما هي عطاء من الله تعالى، فإذا أدرك العابد ربوبيّة الله، تمكّن من الاستفادة من بركات العبادة.

إنّ الفرق بين العبادة المقرونة بالمعرفة وبين العبادة المفتقرة لها، كالفرق بين الوردة الواقعية ورسمها، من حيث إنّ لهما ماهيّتين ومعنيين، فليس لرسم الوردة الشكيلة أيّ حقيقة من حقائق الوردة ذاتها. ولعلّ رسّاماً بارعاً يتمكّن من تصوير وردة هي في شكلها أجمل وأروع من الوردة الحقيقية، ولكن يستحيل أن يكون لها مميّزات الوردة الواقعية.

إنّ بعض أشكال العبادة تشبه صورة وردة مرسومة على اللوحة أو الجدار، حيث لا فائدة أو ثمرة لها. فترى العابد يقتصر بالعبادة على مجرّد اللفظ والحركة أو السكون، دون أن تجد أو تلمس لها روحاً، أي أنّها وإن بدت كاملة من حيث الأداء الشكلي ومراعاة الأجزاء والشروط الظاهرية

وإسقاطها للتكليف، ولكن هذا الإسقاط متأتٍ من ناحية اللطف الإلهي، دون أن يكون لذات العبادة فائدة أو تأثير.

لقد قال الله سبحانه وتعالى بكلّ وضوح: **(إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ)** [31] ..

ومع أنّا نعلم أنّ أصدق كلام في عالم الإمكان هو كلام الله تبارك اسمه، ولكنّا نشاهد كثيراً من الصلوات لا تحول دون الفحشاء والمنكر، بل إنّ منها ما يقترن بالمنكر أصلاً.

والسبب: أنّ ذلك كلّه إنّما يعود إلى خروج الصلاة عموماً عن ماهيّتها الواقعيّة وحقيقتها، فصارت عديمة الشبه بالصلاة الأصليّة، اللهمّ إلا في الشكل ورفع التكليف، وإنقاذ صاحبها من العقاب الأخروي. إذاً فهي غير تلك الصلاة التي أشير إليها في القرآن الكريم على أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قد تكون جميع آداب الصلاة – بما فيها المستحبّات والمكروهات – ذات أهميّة خاصّة، ولكن الأمر الأهمّ من ذلك كلّه التوجّه إلى الله عزّ وجلّ، والذي عُبّر عنه بـ «الإقبال» في الروايات الشريفة، أي: إنّ الإنسان حينما يشرع بصلاته قائلاً: «الله أكبر» عليه أن يعي ما يقول، وإذا قال: «بسم الله» عليه أن يتعمّق في هذه العبارة المقدّسة.

فإنه ينبغي إيلاء الاهتمام بقضايا الوعي والدقّة أكثر من الاهتمام بالقيام بالمستحبّات، بمعنى أنّ الفرد إذا كان مخيّراً بين الدقّة واستيعاب العبادة وبين إنجاز بعض المستحبّات، فإنّ من المفترض أن يفضّل الخيار الأوّل.

قد يقف المصلّي بين يدي الله عزّ وجلّ، ولكنّه قد لا يتعمّق أو يهتمّ بموقفه، بل لعلّه لا يهتمّ – والعياذ بالله – بحديثه مع ربّه بمستوى اهتمامه بالحديث مع طفل ذي أربع سنوات، فترى جلّ همّه إتقان الألفاظ ومخارج الحروف، بينما هو غافل عمّا يقول، وهذا الأمر معلول الجهل بالمعبود.

إنّ الله تبارك وتعالى يحبّ للإنسان أن يصلّي بوعي وحضور قلب، وأن يصلّي في أوّل الوقت، وإن كانت مقتصرة على الواجبات، إذ إنّ أداء الصلاة في أوّل وقتها مع الوعي والتركيز، خير من اقترانها بكثير من المستحبّات ولكنّها مجرّدة عن الإخلاص والتركيز، وليس خافياً أنّ الإنسان إذا ما كانت له علاقة وطيدة مع أحد الناس، فإنّه يسعى إلى الإقبال التامّ عليه في حال التحدّث إليه، لتكريس مزيد من العلاقة والحبّ تجاهه. ومَن أولى من الله الخالق الودود بالحبّ والارتباط؟!

يقول إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف فيما يخصّ العبادة ومستوى قرب واقتراب العابد من المعبود:

«اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك» [32] .

فالله تبارك اسمه قد أكرم عبده كرامة لا تقاس بغيرها، وهي إذنه له بدعائه وعبادته والتحدّث إليه بصورة مباشرة، كما وعده الاستماع إليه وقبول عبادته.

ثمّ يضيف سلام الله عليه قائلاً:

«فاسمعْ يا سميعُ مدحتي، وأجبْ يا رحيمُ دعوتي» [33] .

ولاشكّ أنّ عمق هذه العبارة وامتداد أفقها يتجاوزان عمق ومساحة السماوات والأرضين:

إنّ للمعرفة درجات ومراتب، وإنّ المعصومين يتمتّعون بأعلى الدرجات وأسمى المراتب الخاصّة بمعرفة الله المتعال. وإنّ علو الدرجة وسموّ المرتبة المعرفية والاقتراب من حقيقة الربّ المتعال هي التي توجب أو تعكس التفوّه بالعبارة المقدّسة، التي جاء فيها:

«اللّهم! أذنت لي في دعائك ومسألتك» وما تحويه من المعاني الملكوتيّة.

إنّ الإنسان العارف حقّاً لا يرتكب الخطيئة، لأنّه يدرك حقيقة الله وشأنه، ويلفّه الحياء والخجل من أن يرتكب ذنباً في محضر ربّه، لاسيّما وأنّ جميع الطرق التي تؤدّي إلى ارتكاب المآثم والانحراف البشري تنغلق وتنقطع عند المعرفة، فيُمنح صاحبها حياة شبيهة بحياة المعصومين، تماماً كما أنّ التعرف إلى الحالة البيئيّة أو الطبيعيّة لبدن الإنسان تدفعه في معظم الأحيان إلى انتهاج سبيل الاعتدال والوقاية الصحيّة فيما يخصّ أمور التغذية، ليكون في منأىً عن الأمراض، إضافة إلى أنّ المعرفة المعنويّة بدورها تنجي أو تقي المرء من التعرّض للأمراض والمشاكل الروحيّة كذلك.

فمتى ما حصلت المعرفة الواقعيّة، أصبحت روح الإنسان وقواه العقليّة وحتَّى المادّية في مأمن من الوقوع في طرق ومهاوي الانحراف.

ومن هنا كان من المفروض على الإنسان أن يسعى دائماً لتوسيع دائرة فهمه وأفق وعيه فيما يتعلّق بالربّ الواحد الأحد، وبعبادته وبشروطها، وينبغي أن يسير ضمن عملية تطوّر متواصل.

أقسام العبادة

لقد قسّم العلامة المجلسي رحمه الله العبادات إلى ستّة أقسام[34]، هي:

1. عبادة الشاكرين.
2. عبادة المتقرّبين.
3. عبادة المستحيين.
4. عبادة ذائقي الحلاوة.
5. عبادة المحبّين.
6. عبادة العارفين.

- **عبادة الشاكرين**

قد يعبد الناس ربّهم على ما أنعم عليهم من النعم الكثير، مثل نعمة الحياة والسلامة وسائر النعم الماديّة والمعنويّة، فيشكرونه ويعبدونه. مثلاً: حينما يرى الإنسان شخصاً ضريراً أو أصمّ، فإنّه يشكر ربّه على نعمتي البصر والسمع اللتين أنعم بهما عليه، وهذا النوع من العبادة يُسمَّى عبادة الشاكرين.

- **عبادة المتقرّبين**

جميع الناس يحرصون على إقامة علاقات طيّبة مع الأشخاص ذوي السلطة والنفوذ، آملين اللجوء إلى سلطتهم ونفوذهم في ساعات العسرة والحاجة.

وهناك قسم من الناس، وبداعي معرفتهم بالله سبحانه وتعالى – حيث وجدوه الأقوى والأقدر من جميع الموجودات؛ باعتباره الموجد لها – يعبدونه ليحرزوا رضاه عنهم ويؤمنّوا لأنفسهم مستقبلاً طيّباً.

وتحقّق هذا النوع من العبادة متوقّف على مستوى المعرفة الصحيحة بالله تعالى، إذ لابدّ أن تتجذّر في قلب الإنسان العابد حقيقة عدم وجود من هو أكبر وأقوى من ذات الله المقدّسة. وما لم

تتكرّس هذه الحقيقة في قلب الإنسان وروحه، فإنّه لن يُقبل على أداء صلوات مستحبّة، بل لا يبقى لديه تفاوت بين أداء الصلاة المكتوبة في أوّل وقتها أو آخر وقتها، لأنّ إقامة الصلاة المستحبّة أو أداء المكتوبة في أوّل الوقت يعدّ معلول المعرفة التامّة بالله تعالى، ولذلك جاء في الحديث الشريف: [35]

«فأوّل الوقت رضوان الله، وأوسطه عفو الله، وآخره غفران الله»

إنّ من يؤخّر صلاته أقلّ اطمئناناً إلى أنّ الله تبارك وتعالى سيجيبه إذا ما دعاه، ممن يؤدّي صلاته في أوّل الوقت.

- **عبادة المستحيين**

وهناك قسم من الناس يشعرون بالخجل من الله تعالى والندم إزاء ما فرّطوا في جنب الله وما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي، فتراهم يعبدونه؛ طلباً لرحمته واستنزالاً لعفوه. هذه العبادة، تسمّى عبادة الاستحياء، أو عبادة المستحيين.

- **عبادة ذائق الحلاوة**

إذا تعبّد شخص ما في ليلة القدر حتى الصباح، بخضوع وخشوع، واستقرّت روحانية ومعنويّة هذه العبادة في قلبه، واستشعر لذّتها، فإنّه سيستيقظ في ليالٍ أخرى على أمل الحصول على مثل تلك اللذة من العبادة، شأنه في ذلك شأن من يقصد زيارة العتبات المقدّسة رغم ما يعانيه من مشاكل مادّية، فحينما يُتمّ زيارته ويعود إلى محلّ إقامته، تراه يعدّ الساعات والأيّام ليعاود الزيارة ثانية وثالثة ورابعة... أو يتحسّر على عجزه المالي الذي يعيقه عن معاودة الزيارة. فهذا الشخص إنما ذهب للزيارة في المرّة الأولى بقصد الثواب والمبرّرات العقليّة والشرعيّة، ولكنه يزور في المرّة الثانية بقصد درك اللذة الروحية والمعنويّة.

إنّ هذا النوع من العبادة يُعدّ مرتبة سامية من مراتب العبادة، وتسمى: عبادة ذائق الحلاوة.

- **عبادة المحبّين**

المرتبة التالية للعبادة، هي التي تسمّى عبادة المحبّين، وهي أسمى من المراتب السابقة لها.

فدافع العبادة لدى بعض الناس هي العلاقة الوحيدة مع الربّ الرحيم الودود، فهم يعبدون الله تعالى، لأنّهم يحبّونه.

- **عبادة العارفين**

روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال مناجياً الربّ الجليل:

«ما عبدتُك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، لكن وجدتُك أهلاً للعبادة...» [36]

ومثل هذه المعرفة هي التي يجب أن يُسعى لها.

ولكن، كيف يتسنى الحصول عليها؟!

إنّ لتحصيل هذه المعرفة طريقاً واحداً، وهو طريق أهل البيت سلام الله عليهم، بينما الطرق الأخرى كافّة هي طرق الشيطان، وليست طرق معرفة الله تعالى، حتى ما يصطلح عليه بالفلسفة أو العرفان ليست طرقاً موصلة.

والموضوع الدقيق في هذا الفصل من كلام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والجدير بأن لا يُغفل عنه، هو أنّه بعد إيراد الشرط الأوّل لصحّة العبادة؛ والمتمثّل بالمعرفة، يعقّب صلّى الله عليه وآله بالقول: «**الإيمان بي**» أي برسالته صلّى الله عليه وآله ونبوّته وشخصه الكريم، ثم يعطف عليه بقوله: «**ثم حُبّ أهل بيتـي**». وهذا (الحبّ) من الشرائط المهمّة للعبادة الحقّة.

أجل، حينما تتمّ المعرفة يتأتّى الإيمان، ومن يعرف الله تعالى يؤمن برسوله صلّى الله عليه وآله ويحبّ أهل البيت عليهم السلام، وواضح أنّ «المحبّ لمن يحبّ مطيع» [37]، وهكذا ينبغي أن يكون.

فالإيمان والمعرفة يتوقّف أحدهما على الآخر، وهما بمثابة اللازم والملزوم، وحينها فإن وُجدا معاً، يأتي ويتحقّق حبّ أهل البيت سلام الله عليهم.

ما هي سعادة الإنسان؟

«يا أبا ذر! احفظ ما أُوصيك به تكن سعيداً في الدنيا والآخرة.

يا أبا ذر! نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ.

يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك...».

يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا القسم من وصيّته أبا ذر رضوان الله تعالى عليه أن يعمل بوصاياه، ليحظى بسعادة الدنيا والآخرة.

إنّ الراحة وطمأنينة النفس الإنسانية أفضل مقياس لتحقّق السعادة، لأنّ جميع مصاديق السعادة الأخرى تعود في نهاية المطاف إلى راحة النفس واستقرارها واطمئنانها؛ فإنّ الثروة والشباب، وتناول الطعام اللذيذ والتمتع بكل اللذائذ الأخرى، تتحوّل جميعها إلى مرارة وتفاهة، ما لم تكن مقترنة براحة الروح وطمأنينة النفس.

فلو أنّ شخصاً ما قُدّم له في بيته ألذّ الطعام، ولكنه في الوقت ذاته كان مديناً بمبلغ كبير من المال يُثقل كاهله، وكان يتوقّع أن يطرق الدائن بابه في أيّ لحظة، فهو يحذر ويخاف من أن يذهب بماء وجهه، فيا ترى هل يشعر بلذّة حين يتناول ذلك الطعام؟

بينما إذا أُخبر في تلك الأثناء أنّ شخصاً ما قد سدّد عنه دينه، وأن لا مبرر للقلق والخوف، ثم إنّه بعد ذلك انشغل بتناول مجرد الخبز اليابس والماء، ثم سئل عن نوعي الطعام؛ أيّهما ألذ: الطعام الأوّل مع القلق، أم الخبز اليابس مع راحة البال؟!

إنّ من المؤكّد أنّ اللذّة التي يستشعرها أثناء تناول الخبز اليابس أعلى بكثير من أيّ طعام لذيذ آخر، إذ لا لذّة تُستشعر مع الخوف والقلق والاضطراب.

إنّ النبيّ الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وآله يحدّد للمؤمنين كافّةً – وبوضوح بالغ – نوع الدواء الناجع ليحقّقوا السعادة في الدنيا والآخرة، أي ليعيشوا دائماً في راحة واطمئنان، ذلك لأنّ هذه الخصوصيّة ستؤثّر على جميع مظاهر ومصاديق السعادة.

ويجدر بالفرد المتديّن أن يهتمّ كل الاهتمام بهذه الوصيّة ويعمل وفقها. فمعنى التديّن: أن تراعَى جميع جوانب الدين، دون الالتزام الجزئيّ به. فالدين الذي ينتهي إلى منتصف الطريق لا يُسمّى ديناً، ولا يعالج أمراً، ومن ثم فإنّ ثمرة الدين وفائدته ونتائجه الإيجابيّة إنّما تتّضح وتتبلور حينما تحظى جميع مسائل الدين بالاهتمام اللازم.

أمّا ظاهرة (الانتقائية) في مسائل الدين وأحكامه التي يصفها الله (تبارك اسمه) في القرآن الكريم بقوله تعالى: **(وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)** [38] .

فتعتبر بمثابة الآفة التي تستولي على قلب الإنسان وسلوكه وتنتهي بإيمانه إلى الضياع، والله سبحانه وتعالى يصف من تستولي عليه هذه الظاهرة في الدين بقوله الصادق والصارم: **(أولئك هُمُ الكافرونَ حقّاً)** [39]

إذ استيلاء هذه الظاهرة على القلب والفكر، تعني – والعياذ بالله – التلبس التامّ بالكفر.

أمّا إن عمل الإنسان بجميع تعاليم الدين والتزم بجميع أبعاده، وحقّق السعادة التي تمّ توضيحها له، فإنّه لن يعاني صعوبة، أو يعذّبه ويقضّ مضجعه نوعُ اضطراب، وإن قضى الأيام عطشاناً والليالي جائعاً.

إنّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه الذي هو من جملة تلامذة هذه المدرسة المحمديّة، ومن عمل بوصايا النبيّ العظيم صلّى الله عليه وآله، يعتبر أفضل وأسمى قدوة ومصداق لهذه الحقيقة، فهو قد توفّي جائعاً عطشاناً، وحيداً في صحراء المنفى الحارقة، ولكن موته كان مقروناً بالسعادة والعزّة، ولم يشعر بالخواء الروحي أبداً، كما لم يحسّ بالتعب والعطب مطلقاً، وإنّما ودّع الدنيا برضىً تام وراحة بال مطلقة، إذ رغم عطشه وجوعه، وفقره وحاجته الماديّة، لم يستسلم للظلم والجور.

لاشك أنّه لم تكن لأبي ذر خصوصية باعتباره مخاطباً، وإنّ خطاب النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله كان موجّهاً إلى جميع الناس، وعلى مرّ التاريخ.

نعمتان مجهولتان

يشير النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هنا إلى نعمتي الصحّة والفراغ اللتين يتمتّع بهما أكثر الناس، ولكنّهم لا يعرفون قيمتهما، فهم مغبونون تجاههما.

إنّ مفردة (الغَبن) غالباً ما تستخدم في القضايا الماليّة، وقليلاً ما تستعمل في غيرها. فهي تستخدم للتعبير عن انخداع أحد طرفي العقد أو التعامل في تحديد ثمن السلعة. وحكم الغبن معلوم في المسائل الماليّة.

فإذا اشترى شخص ما سلعة، ولم يكن يعلم سعرها الحقيقي، فدفع ألفي درهم لما قيمته ألف درهم مثلاً، فإنّه يعتبر مغبوناً بألف درهم، لكونه انخدع بالألف الأخرى، وكذلك شأن من يخدع بأقوال وأكاذيب الآخرين، فهو في واقع أمره مغبون خاسر.

وإنّ إحدى نعم الله سبحانه وتعالى التي لا يُعرف قدرها عادةً، نعمة السلامة والصحّة، إذ مادام الإنسان بريئاً من المرض ولم يُصَب بأوجاع في الرأس أو الظهر مثلاً، فإنّه يستطيع التنعم بلحظات عمره.

ومن المؤكّد أنّ أكبر منفعة في عمر الإنسان هي ذكر الله تعالى، ويمكن التنعّم بهذه المنفعة في حال الصحّة والسلامة على أتمّ وجه، كأوقات ما قبل النوم ولدى الذهاب والمجيء، ولكن قدرة الاستفادة من هذه النعمة الكبرى تقلّ حالة السقم والمرض.

وابن آدم يتنبّه – بندم رهيب – بعد الموت إلى ما فقده في هذه النعمة وبركاتها العميمة.

فكم من ملايين المرّات قد تناسى فيها قول **«لا إله إلا الله»** و **«الله أكبر»** والأذكار الأخرى خلال حياته؟ أوليس هذا التناسي أو النسيان مصداقاً واضحاً للغبن؟

إن لم يستفد الإنسان من هذه النعم واللحظات التي لا تقدّر بثمن، فهو في واقعه مغبون، وتضييع هذه الفرص يمثّل المعنى الحقيقي للغبن.

وقد روي قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (مغبون فيهما كثير من الناس) في بعض الروايات بعبارة أخرى، وهي:

«مفتونٌ مغبونٌ فيهما كثير من الناس» [40] .

إنّ كلمة «مفتون» تعني «ممتحَن»؛ وذلك لأنّ النعم كلّما تنوّعت وتواترت على الإنسان، جعلته عرضة للامتحان والاختبار أكثر، وهكذا تتضاعف نسبة الخسارة والضرر.

وقد جاء في بعض الروايات الكريمة:

«نعمتان مكفورتان: الأمن والعافية»[41].

فالكفر يعني الستر، والإنسان الكافر هو الذي يستر عقله ويخفيه بحجب الضلالة والجهل والعناد، وعلى هذا؛ فالكافر مقصّر، لأنّه لا يستفيد من عقله بالصورة الصحيحة، رغم أنّه يفعّل طاقة عقله وذكائه وذاكرته في القضايا غير الدينيّة بشكل جيّد، ولكنّه قد أزاح عقله عن المسائل العقائديّة والمعنويّة. فهو قد لا يتناول طعاماً فاسداً، ولا يورّط نفسه في صفقه تجارية خاسرة، وقد يضفي على سلوكه طابعاً طيّباً، ولكنه على الصعيد الديني يعطّل عقله، أي: بحجبه ويقيّده دون العمل والانطلاق، مع أنه يلزمه إزاحة الستار المقيت، ليعرف ويعي حقيقة وفوائد نعمتي السلامة والفراغ، لأنّ معرفة النعم، هي الشرط الأوّل لتحقيق الاستفادة الصحيحة منها.

نعمة العيش في العصر النبويّ

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى الناس في عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أن أوجدهم في ذلك الزمان، وهي نعمة ربانيّة لا تضاهى، ولكن حيث يعسر الامتحان بتعاظم النعمة، فإنّ المعاصرين للحقبة النبويّة كانوا يعيشون – أثناء ذلك – في وضع حرج للغاية.

فمثلاً: ترى المنافقين الذين كانوا على عهد النبيّ المصطفى صلّى الله عليه وآله واختاروا طريق النفاق، أصبحوا موضع غضب ولعن، ولو أنّهم عاشوا في غير زمن النبيّ صلى الله عليه وآله واختاروا النفاق أيضاً، لكان خسرانهم أقلّ درجة.

إنّ وجود النبيّ يعدّ مصدر بركة وإلهام لجميع الأمم على مرّ العصور، فهو نور هداية وبشارة، وإنّ كثيراً من الناس قد اهتدوا إلى الصراط السويّ عبر تعاليمه الفذّة ونصائحه القيّمة صلّى الله عليه وآله، وإنّ شعاع نور وجوده المبارك كان أكثر وهجاً لمن كان يعيش في حقبته، ومن ثمّ فإنّ اختيار طريق الضلال من قبل بعض من عاصروه صلى الله عليه وآله، يعتبر خسراناً مبيناً وتيهاً كبيراً، وليس الخاسر والتائه آنذاك إلا كالمتعثّر في الأرض البسيطة والفضاء المشرق المتوهّج.

إنّ العيش في ظلّ النعم امتحان يصل عبره من يصل إلى جنان الخلد، بينما يقع من خلاله بعض آخر في مهاوي الضياع وحضيض جهنم.

قيمة الشباب والصحة والغنى

بعد أن يبيّن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أهميّة نعمة الصحّة والفراغ – فرصة الانطلاق – ينبّه الشباب أن يعوا قيمة العمر وكونهم شباباً، وأنّ هذه المرحلة من العمر تمرّ وتنقضي، وهي غير قابلة للاستدارة والعودة، وأنّ الإنسان يفقد أكثر قابلياته وقواه بانقضاء مرحلة شبابه، وآنذاك تجده يقول آسفاً: «ليت شباباً بوع فاشتريته!» [42].

ومفردة (ليت) يستعملها العرب للتمنّي لما لا يرجى تحقّقه.

أمّا قول النبيّ صلى الله عليه وآله في هذا الجزء في وصيّته، فيحوي إنذاراً وإخباراً، فهو ينذر الشباب بأنّ شبابهم مرحلة عابرة، وأنّه من الخطأ التساهل والتفريط به.

ثمّ يقول صلى الله عليه وآله: **«وصحّتك قبل سُقمك».**

إنّ أحوال الدنيا غيرثابتة، بل إنّ ذات الدنيا متغيّرة، فترى ابن آدم تارة مريضاً، وأخرى سليماً، وشأن السلامة شأن سائر النعم الدنيويّة والأحوال غير الثابتة.

ولعلّ جميع ما يتعلّق بالإنسان كالعبادة والمعاش، منوط بالسلامة والعافية، فحينما يصاب بالمرض، يفقد نسبة غير بسيطة من قدرته على إنجاز الكثير من الأعمال. ومن تراه يعمل طيلة نهاره، ثمّ ينصب نفسه لأداء صلاة الليل، تراه أيضاً يعجز عن مجرّد القيام في حال مرضه، وحالة المرض هذه تتضاعف لديه حين الشيخوخة، ومن ثمّ فإنّ للمرض وتأثيره حالة نسبيّة إزاء الشاب والشيخ. ولذا كان من الجدير بالإنسان أن يعرف قيمة سلامته، ويسعى حثيثاً لتحقيق أفضل درجات الاستفادة منها واستثمارها.

ثمّ يقول صلى الله عليه وآله: **«وغناك قبل فقرك».**

إنّ هذا المقطع من وصيّة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله جدير بالتأمّل أيضاً.

ففيما يخصّ مفهومَي الفقر والغنى، يمكن القول بأنّ حالتي الفقر والغنى هما صفتان مشكّكتان، أي: إنّ للفقر من حيث المصداق درجات ومراتب متعدّدة وطبقات متفاوتة، إذ يحلّ كلّ

فرد من الأفراد في المجتمع في طبقة من الطبقات. وكلّ طبقة في واقعها غنيّة إزاء ما دونها، وفقيرة بالقياس إلى ما فوقها.

وإنّ أشدّ حالات الفقر أن يجد المرء نفسه جائعاً، لأن نهاية المطاف في الفقر أن لا يجد الإنسان ما يأكل، أو يعجز عن سدّ حاجة بطنه إلى الطعام.

رسول الله والفقر

مع أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان قائداً وزعيماً للحكومة الإسلاميّة، وقبل ذلك كان يتمتّع بأقرب المنازل – على الإطلاق – إلى الله عزّ اسمه، إلا أنّه كان يحمّل نفسه أقسى حالات الجوع، وكثيراً ما كان يتفق أنّه صلى الله عليه وآله لم يتناول طعاماً لوجبات متتالية ثمّ يتوافر لديه المال أو الطعام فيسرع إلى التصدّق به أو إهدائه لمن يصادفه من الفقراء به.

وطالما اضطرّ صلوات الله وسلامه عليه وآله إلى شدّ ما كان يعرف بـ (حجر المجاعة) على بطنه لشدّة ضغط الجوع عليه.[43]

نعم، لقد كان النبي صلى الله عليه وآله، وهو أشرف الأوّلين والآخرين وقائد المسلمين وزعيم الحكومة الإسلاميّة العادلة، يتّخذ هذا السلوك وهو في أوج السلطة والاقتدار.

ولقد ورد في الروايات عن أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أنّ الجوع الذي كان يعانيه النبيّ في مدّة إقامته في المدينة المنوّرة يصل حداً لا تنفع معه مختلف التدابير ومحاولات التحمّل.

فقد أخبر صلى الله عليه وآله ذات يوم ابنته فاطمة الزهراء سلام الله عليها قائلاً:

«ما دخل جوف أبيك منذ ثلاث شيءٌ»[44].

مثل هذا الإنسان الربانيّ الخالص، يتوجّه بالنصح لأبي ذر رضوان الله تعالى عليه بأن يعي قَدْر نعمة الغنى قبل أن يحلّ به الفقر على حين غرّة.

روي عن الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه أنه قال:

«نزل جرئيل على رسول الله، فقال: إنّ الله جلّ جلاله يقرئك السلام ويقول لك: هذه بطحاء مكة؛ إن شئت أن تكون لك ذهباً.

قال: فنظر النبيّ إلى السماء ثلاثاً ثمّ قال: لا ياربّ، ولكن أشبع يوماً فأحمدك، وأجوع يوماً فأسألك»[45]

نعمة الفراغ

قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك:

«وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

إنّ ابن آدم يعجز عن فعل شيءٍ بعد الموت، ويفقد القدرة حتى على قول «لا إله إلا الله» ويعجز عن التصدّق بأبسط الصدقات، ولذلك أضحى من الضروري والمنطقي أن يغتنم حياته بأفضل الأشكال، لأنّ المنتصر الوحيد هو من يستثمر جميع أوقاته خلال حياته المسارعة إلى الانقضاء.

المبادرة إلى تحقيق الأهداف

«يا أبا ذر، إيّاك والتسويف بأملك، فإنّك بيومك ولستَ بما بعده. فإنْ يكن غدٌ لك، فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإنْ لمْ يكنْ غدٌ لك، لم تندم على ما فرّطتَ في اليوم.

يا أبا ذر، كم مِن مستقبلٍ يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه!!».

يوجّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الصحابيّ الجليل أباذر بأن يعمل وكأنّه يعيش في آخر يوم من حياته، بحيث لو عاش في غد لا يستولي عليه الندم في كونه ترك فرضاً أو عبادة فاتته في الأمس، أو عملاً صالحاً بعينه لم يمارسه، أو ارتكب معصية بحقّ الله تعالى أو أذى بحق إنسان صدر منه.

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله الأماني ههنا من باب المثال، والغرض هو أن يتأمّل الإنسان في حياته وأن يكون قصير الأمل، لأنّه لا يدري هل سيعيش غداً؟

لقد مضى على رحيل أبي ذر حوالي (1400) عام، لكن اسمه ووصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ما يزالان خالدين في الأذهان. لقد التزم أبو ذر بوصيّة سيّده ومولاه، فأصبح اسمه لامعاً مشرقاً في كتب التأريخ والتفسير والثقافة.

لقد رحل أبو ذر وانتهت حقبته، وجاء الدور إلى أُناسٍ آخرين، فما هي مدى وكمية استفادة هؤلاء من ثروة أعمارهم وفرصهم في الحياة؟

قصة وعبرة

قصد أحدهم المرحوم آية الله العظمى السيّد الميرزا مهدي الشيرازي قدس سره وطلب منه أن يكلّف شخصاً كي يصلّي نيابة عن جدّه صلاة الاستئجار ويصوم عنه شهراً كاملاً، وقال: لقد أوصى جدّي قبيل وفاته أن يباع بيت من بيوته ويخصّص ثمنه للصلاة والصوم نيابة عنه، ولكنّ

أيّاً من الورثة لم ينجز هذه الوصية، ولكنني أريد الآن القيام بذلك بعد حوالي سبعين سنة وأن أعمل بوصيّته. فمع أنّه ترك أموالاً كثيرة لورثته، لكنه لم يطلب أكثر من أن تباع إحدى دوره للصلاة والصوم نيابة عنه.

لقد رُزق هذا الشخص حفيداً صالحاً، وإلا كان سيحرم حتى من صلاة وصيام هذه السنة كما هو حال كثيرين.

ويُنقل عن شخص آخر أنّه كان مستطيعاً لأداء فريضة الحجّ، ولكنه لم يفعل ذلك. وحينما أحسّ باقتراب الأجل منه أوصى أن يحجّ ابنه عنه، ولكن المؤسف أنّه لم يكن ابناً باراً، فلم ينفّذ وصيّة أبيه، وحينما كان يسأل عن تقصيره في تنفيذ وصيّة أبيه، كان يردّ قائلاً: لمَ لم يحجّ في حياته، لا شأن لي بذلك!!

أقول: إنّ الإنسان ما دام يتمتّع بفرصة الحياة، فإنّ من الحريّ به أن يهتمّ بإعمار آخرته، وإن استطاع – جدلاً – أن يهجر النوم والطعام في سبيل ذلك، فعليه أن يفعل وإن كان لا مناص له منهما؛ إذ بدون النوم لا يستطيع مواصلة العبادة أو الدراسة أو الكتابة، ما يعني ضرورة الاقتصار على الحدّ الأدنى من المنام والطعام وغير ذلك، كمن يقصد المستشفى، فيُرقده الأطباء فيها للعلاج، ولكنّه مع ذلك ليس على استعداد لأن يبقى لحظة إضافية في هذا المكان على الوقت اللازم، وإن كان البقاء مجانيّاً. والنوم والطعام واللباس كذلك شأنها؛ أي ينبغي الاستفادة بحدود الضرورة، مع الأخذ بنظر الاعتبار لزوم مراعاة الآخرين ومداراتهم في بعض الأحيان، ومثاله: إذا حلّ ضيف على إنسان فإنّه يجب عليه مداراة الضيف إلى الحدّ الممكن. ولكن هذه الوصايا متعلّقة بحالة كون الإنسان وحيداً، فمن المفترض أن يسعى للاكتفاء بالحدّ الأدنى من الاستفادة من النوم والطعام ما أمكنه.

يُنقل أنّ قوماً كانوا يعيشون على ساحل البحر، وكان من شأنهم أنهم ينتخبون لأنفسهم ملكاً يحكمهم في كلّ سنتين، ولم تكن تهمّهم حقيقة من يحكمهم، سواء كان حمّالاً أو بقّالاً أو عالماً، شابّاً أو شيخاً، وكانوا يخبرونه بأنّهم سيطيعونه طاعة مطلقة خلال هاتين السنتين، ولكنّهم يقومون برميه في البحر عند انقضاء المدّة، ولذلك قلَّ أن يتقدّم شخص لتقبّل المنصب، إلا أنّ حكيماً مفكّراً أعلن استعداده لأن يكون ملكاً عليهم. فكان له ذلك، وخلال السنتين أرسل جمعاً من أفراد حاشيته ليعثروا له على جزيرة مناسبة للعيش، وأن ينقلوا إليها وسائل لإقامة العيش الرغيد، كما أمر بتشييد البساتين والمزارع فيها، وصنع الزوارق للانتقال إليها، وقام بإخفائها في ناحية من نواحي الشاطئ. وحينما انقضت سنتا حكومته رماه الناس إلى البحر، فأوصل نفسه إلى الزوارق وقصد الجزيرة وأمضى بقيّة عمره فيها.

فتلك السنتان هما الدنيا، وتلك الجزيرة هي الآخرة. والإنسان إذا عمّر مئة عام، فإنّها تعدل تلك السنتين، ثمّ يرمى إلى البحر، وفيه قد يكون من نصيب الحيتان المفترسة. فإن لم يكن من أهل المعاصي، فإنّه يتحسّر على ما فرط منه فقط، ولكنّه إن كان من أهل المعاصي – والعياذ بالله – فإنّ الحسرة ستمتزج بالعذاب الإلهي.

إنّ قول ذلك سهل على اللسان ولكن ما أصعبه في الواقع!

فمثلاً: إذا سافر شخص ثمّ تنبّه إلى أنّه قد نسي وسائل السفر ومتطلّباته، فهو لاشكّ سيتحسّر لذلك، مع أنّه يستطيع توفير تلك الوسائل لاحقاً بواسطة مكالمة هاتفية أو إرسال برقيّة، ولكن في سفرة الموت ينتهي عنده كلّ شيءٍ، ومن كان من أهل العصيان سيتأكّد بأنّه قد قُضي عليه ويعجز عجزاً مطلقاً عن فعل شيءٍ ما، وتبدأ إذ ذاك مأساته.

التعجيل بالتوبة

ما دام ابن آدم حيّاً، فإنّ باب التوبة مشرع لديه، فيمكنه أن يصلح ماضيه ويضع نفسه في طريق السعادة والتكامل.

وبهذا الصدد، يؤكّد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إنّ الله تعالى يتوب على عبده قبل سنة من موته، بل سنة كثير، إنّه يتوب عليه قبل شهر، بل شهر كثير، إنّه يتوب عليه قبل أسبوع من موته، بل أسبوع واحد كثير، إنّه يتوب عليه قبل يوم، بل يوم كثير، إنّه يتوب على ابن آدم قبل لقائه ملك الموت إن تاب واستغفر... » [46].

أي: إنّ الله تعالى يقبل التوبة من العبد حتى قبيل نظره إلى عالم الآخرة بلحظة، ولكن لا ينبغي التسويف في التوبة وإيكالها إلى الغد وما بعده، إذ ما هي الضمانة لديه في أن يبقى حيّاً إلى الغد؟ وهل الذين ماتوا كانوا يعلمون بموعد انقضاء آجالهم؟

إنّ من المستحسن أن يزور الإنسان القبور، ليعلم أنّ أهلها نائمون تحت أكداس من التراب، وكان فيهم من هو أعلم وأذكى وأغنى وأقوى وأكثر – أو أقلّ – عمراً منه. فكلّ واحد منهم كان يمنّي نفسه بالعديد من الأماني، ولكن ما هي النهاية التي انتهى إليها؟ وهل حقّق جميع الموتى أمانيهم؟

يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «**إيّاك والتسويف**» فلْيمتنع من يظنّ في نفسه العقل والإرادة عن التباطؤ في إعلان التوبة ومشروع الإصلاح النفسي.

يروى أنّ عمر بن سعد لعنه الله قال أبياتاً من الشعر بعد أن عزم على حرب الإمام الحسين سلام الله عليه؛ منها قوله:

فإن صدقوا فيما يقولون إنني.   أتوب إلى الرحمن من سنتين [47]

فهل تاب حقّاً؟ وهل كانت ستنفعه توبته المزعومة؟ علماً أنّ الله تعالى لا يتجاوز عن حقّ المظلوم.

وإذا كان الله تبارك وتعالى هو العادل و **(إنّ اللهَ لا يَظْلِمُ مثقالَ ذرّةٍ)** [48] فإنّه ينبغي الخوف والحذر من عدل الله. فهو لا يتجاوز عن مظلمة صغيرة لعباده، ولا يقبل في ذلك عذراً أو تبريراً.

بعض الظالمين يردّد مقولة «المأمور معذور» وهي مقولة خاطئة إذا أُريد منها الإطلاق، ولا تكون مقبولة إلاّ في منطق الطغاة، كفرعون ويزيد وهارون العباسي، غير أنّ الأمر ليس على هذا النحو في منطق الرسول المصطفى صلّى الله عليه وآله ومنطق القرآن الكريم ومنطق الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه وعباد الله الصالحين.

فالمهمّ هو الآمر من يكون، وهل أمره حقّ؟ فعندما يكون المأمور كأبي ذر رضوان الله تعالى عليه والآمر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فهنا ليس المأمور معذوراً فحسب، بل هو مأجور أيضاً.

أما المأمور من ناحية سلطان الجور، فإنّ جميع أعماله – وإن كان ظاهرها صالحاً – هي في عداد الباطل والإثم.

على سبيل المثال: لا فضيلة في الإسلام كعمارة المساجد؛ إذ ورد في القرآن الكريم والروايات الشريفة أنّ في بناء المساجد فضائل جمّة، ذلك لأنّها محالّ العبادة والدعاء والتوبة والاعتكاف وغير ذلك، لكننا نلاحظ أنّ الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه يقول لأحد أصحابه:

«لا تُعنْهم – الطغاة والظلمة. على بناء مسجد» [49] .

إنّ القضيّة مهمّة للغاية وخطيرة، فحتّى إذا بنى شخص ما للظالم مسجداً أو داراً للأيتام أو حسينيّة، فلا يقبل منه، لأنّ عمله هذا يوجب تقوية ودعم المؤسّسة الظالمة على الصعيد الدعائي ومحاولة خداع الناس، ولذلك لُعنت بعض المساجد في بعض الروايات المرويّة عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام!!

أقول: هناك من بين آلاف الرواة الشيعة عدّة مئات من هم في عداد الثقات ومحطّ الاعتماد، ومن بين هؤلاء عشرات أفضل من الآخرين، ولعلّ من بين هؤلاء العشرات من يوصفون بأنّهم خيرة الخيرة، وقد كان أحد هؤلاء رجل يدعي صفوان بن مهران الجمّال.

كان لصفوان هذا جمال كثيرة يكسب رزقه بما يعود عليه من مال إجارتها. ذات يوم استأجر هارون العباسي جمالاً منه.

يقول صفوان: دخلت على أبي الحسن الأول (موسى بن جعفر سلام الله عليه) فقال لي: يا صفوان، كلّ شيء منك حسن جميل، ما خلا شيئاً واحداً. فقلت: جعلت فداك، أيّ شيء؟ قال: إكراوك جمالك هذا الرجل – يعنى هارون.

قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا لصيد ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق، يعنى طريق مكّة، ولا أتولّيه بنفسي، ولكني أبعث معه غلماني.

فقال لي: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم، جعلت فداك.

فقال لي: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟

قلت: نعم.

قال: فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وروده في النار.

قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها. فبلغ ذلك الى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان، بلغني أنك بعت جمالك. قلت: نعم. قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير وإن الغلمان لا يفون بالأعمال. فقال: هيهات هيهات، إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر سلام الله عليه. فقلت: ما لي ولموسى بن جعفر سلام الله عليه! فقال: دع هذا عنك، فو الله لولا حسن صحبتك لقتلتك» [50].

التفكر في الموت والقيامة

«يا أبا ذر، لو نظرتَ إلى الأجل ومصيره لأبغضتَ الأملَ وغرورَه.

يا أبا ذر، كنْ كأنّك في الدنيا غريب، أو كعابر سبيل، وعدَّ نفسَك من أصحاب القبور».

إنّ الأجل هو اللحظة التي يغادر فيها الإنسان دنياه. فهو بعد طيّ مسيره الدنيوي يصل إلى مصيره [51] الأخروي، وهذه خاصيّة الإنسان، إذ الحيوانات لا (مصير) لها.

فالأجل هو أوّل الآخرة وخاتمة الدنيا، وتبدأ عمليّة الحساب بعد الممات مباشرة، والقبر هو المصير الأوّل:

«القبر إمّا روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران» [52] .

والمصير الذي يلي القبر هو يوم القيامة. أما المصير النهائي فهو إمّا الجنّة أو النار.

هناك كثير من الناس يبذلون ما يستطيعون من الجهد خلال فترة شبابهم وقوّتهم، ولا يريحون أنفسهم إلا قليلاً، ولكنّهم يضحّون ب (مسيرهم) لحساب (مصيرهم)، كما أنّ كثيراً من الناس يقضون (مسيرهم) باللهو واللغو ويقولون: ليكن (المصير) ما يكون!!

إنّ الطفل الذي يعِدُه أبوه بالجائزة إن استحمّ وتنظّف، يدرك على مستواه معنى وضرورة التضحية بالمسير لصالح المصير، أي أنّه يتحمّل إزعاج الاستحمام من أجل الوصول إلى الجائزة الموعودة، إلا أنّ كثيراً من الكبار – مع الأسف – يضحّي بالمصير من أجل المسير.

إذا فكّر ابن آدم في عاقبة الأمر وتساءل مع نفسه عمّا سيكون مصيره؛ الجنّة أو النار، حيث مطلق النعيم أو مطلق العذاب والسخط، فإنّه لن يغفل بعد ذلك عن ذكر الله تعالى، ولن تخدعه أمانيه، وسيقول لنفسه: إنّ أولئك الذين قضوا نحبهم كانت لهم آمالهم، الصغير منهم والكبير، ولكنهم رحلوا جميعاً مع أمانيهم وآمالهم.

وحين يفكر الإنسان بهذه الطريقة المتعقّلة، سيهجر أمانيه. لاشك أنّ مجرد التمنّي ليس أمراً معيباً، ولكن ما يعتوره من الكذب والغرور يجرّ ابن آدم إلى حيث وادي الغفلة والجهل والضياع.

الغربة في الدنيا

يقول النبيّ صلى الله عليه وآله:

«يا أبا ذر، كن كأنّك في الدنيا غريب...»

كما أنّ الفرد الذي يعيش في بلاد الغربة، ويجهل قوانينها، ولا يعرف لغتها، يستعلم من الناس عمّا يحتاج إليه من إعداد المسكن والطعام، ويسأل أهل الخبرة والعلم عن كلّ شيءٍ يشكّ فيه. فكذلك ينبغي أن يكون حال ابن آدم في غربة الدنيا، فإن لم يعلم أمراً، وجهل حكمه الشرعي، فعليه أن يتورّع عن الخوض فيه حتى يسأل أهل الخبرة والعلم، من أئمة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، إذ يجب أن يسأل هؤلاء عن السلعة المرغوبة في سوق الآخرة، فيحملها إليها من دار الدنيا.

وواقع الأمر يؤكّد ضرورة أن تكون جميع أعمال المؤمنين محطّ تأييد ورضا أهل البيت سلام الله عليهم، وأنّ الخاسر هو من يقضي عمره في ممارسة أعمال يظنّها صالحة وما هي كذلك لأنّها لا تحظى برضا الربّ المتعال في الدار الآخرة، ولم تكن موضع تأييد المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

إنّ الله تعالى جعل رسوله المصطفى وأهل البيت سلام الله عليهم طرقاً مضيئة إلى إنجاز أعمال الخير والصلاح، وهؤلاء لا انفصام بينهم، إذ لابدّ من الالتزام بأوامرهم جميعاً لممارسة الدين.

وفي عصر الغيبة – غيبة إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف – يلزم الرجوع إلى الفقهاء الذين لهم آراؤهم المستقاة من القرآن والسنّة، بعد أن يفرغوا كلّ جهدهم في هذا السبيل.

على سبيل المثال: كان المرحوم آية الله العظمى السيّد مهدي الشيرازي يجلس من أجل البحث في قضية استفتائيّة إلى عدّة من المراجع والمجتهدين في عصره، مثل المرحوم السيّد حسين القمّي[53] والسيّد محمد هادي الميلاني[54] والميرزا الأصفهاني[55] وزين العابدين الكاشاني، وقد يقضون في مسألة واحدة أسبوعاً من التفكّر والتأمّل؛ كلّ ذلك من أجل إحراز أكبر نسبة من الحقيقة والواقع الشرعي.

***

ثم قال صلّى الله عليه وآله:

«أو كعابر سبيل».

إذا أراد شخص ما التوجّه من مدينة إلى أخرى، فإنّه لا يهتمّ للطريق الرابط بينهما إلا بما يضمن عبوره بسلام، دون الالتفات إلى خصوصيّات المناطق الكائنة فيه، إذ إنّ ما يتعلّق به هو سرعة وسلامة الوصول، وهكذا أراد النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله للإنسان أن ينظر إلى الدنيا كما ينظر المسافر إلى الطريق، فلا تشغله الجادّة عن الوصول إلى المقصود.

***

وقال صلّى الله عليه وآله:

«وعدّ نفسك من أصحاب القبور».

أي لا تلجئ نفسك إلى الارتباط بالدنيا طرفة عين، وتخيّل أنّك تعيش آخر أيّامك بل تصوّر أنّك قد وُضعت في القبر، وأُهيل عليك التراب، وبقيتَ وحيداً مع أعمالك، وأنّ أهلك وأصحابك قد تركوك.

ذُكر في كتب المواعظ والإرشاد: أنّ شابّاً من الأنصار كان يأتي عبد الله بن عباس، وكان عبد الله يكرمه ويدنيه، فقيل له: إنك تكرم هذا الشاب وتدنيه، وهو شابّ سوء يأتي القبور فينبشها بالليالي! فقال عبد الله بن عباس: إذا كان ذلك فأعلموني. قال: فخرج الشابّ في بعض الليالي يتخلّل القبور، فأُعلم عبد الله بن عباس بذلك، فخرج لينظر ما يكون من أمره، ووقف ناحية ينظر إليه من حيث لا يراه الشاب، قال: فدخل قبراً قد حفر، ثم اضطجع في اللحد، ونادى بأعلى صوته: يا ويحي إذا دخلت لحدي وحدي، ونطقت الأرض من تحتي، فقالت: لا مرحباً بك ولا أهلاً، قد كنت أبغضك وأنت على ظهري، فكيف وقد صرت في بطني! بل ويحي إذا نظرت إلى الأنبياء وقوفاً، والملائكة صفوفاً، فمن عدلك غداً من يخلّصني؟ ومن المظلومين من يستنقذني؟ ومن عذاب النار من يجيرني؟ عصيت من ليس بأهل أن يعصى، عاهدت ربّي مرّة بعد أخرى فلم يجد عندي صدقاً ولا وفاءً.

وجعل يردّد هذا الكلام ويبكي. فلما خرج من القبر التزمه ابن عباس وعانقه، ثم قال له: نعم النباش، نعم النباش، ما أنبشك للذنوب والخطايا، ثم تفرّقا.[56]

نعم! إنّ شابّاً ينشغل بذكر الموت والآخرة لذو حظٍّ عظيم، ولعمله هذا قيمة كبرى.

الحذر من الصرعة عند العثرات

«يا أبا ذر، إيّاك أن تدركك الصرعة عند العثرة، فلا تُقال العثرة، ولا تُمكّن من الرجعة، ولا يحمدك من خلّفتَ بما تركتَ، ولا يعذرك من تَقدّم عليه بما اشتغلت به».

العثرة والصرعة

العثرة [57] بمعنى السقوط إلى الأرض، وهي أمر طبيعي في حياة الإنسان، لأنّه ليس كائناً معصوماً، لاسيما وأنّه كثيراً ما تبهره زخارف الدنيا وزينتها، ولذلك يقترف الذنوب، ويتعدّى على حقوق الله أو الناس.

والنبيّ صلى الله عليه وآله يوصي أبا ذر رضوان الله تعالى عليه ويذكّره خطر العثرة والسقوط، لئلاّ تتبدّل عثرته إلى صرعة [58].

إنّ من السقطات الصغيرة التي يتعرّض لها الإنسان في الدنيا ما تعيقه وتعجزه عن القيام مرّة أخرى، شأنه في ذلك شأن المصاب بمرض بسيط، ولكنّه يغفل عن معالجته حتى يستفحل عليه ويتسبّب له بأمراض خطيرة ومميتة.

إلا أنّ ما يقصده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من تحذيره أبا ذر من السقوط، ليس هو السقوط الجسماني والمادّي منه، بل هو السقوط المعنوي، وإذا ما حدث ذلك، فينبغي الإسراع إلى معالجة الأمر، لئلاّ يتحوّل إلى صرعة دائمة مميتة.

قد يحدث أن يصاب جسم الإنسان بجرح عميق، ولكن من شأن هذه الإصابة أن تلتئم في حال المعالجة والعناية الدقيقة، وهكذا هو شأن العثرة المعنويّة، فالذنب والسقوط، مهما عظم وكبر، فإنّ رحمة الله المطلقة وعفوه اللامحدود يُجبران زلّة الإنسان، إن هو أراد التوبة، أمّا إذا عتا واستكبر، فسيذوق وبال أمره، عاجلاً أم آجلاً. [59]

إنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي [59] لم يكن شخصاً مجرماً قاتلاً في بداية حياته، بل قيل إنّه كان من أهل الصلاة والصيام، بل كان إماماً للجماعة، فكيف تحوّل هذا الشخص إلى طاغية جبار كما هو معروف عنه؟!

لقد أصبح الحجّاج حاكماً دموياً بفعل عثراته المتعاقبة وغفلاته المتتالية، حتى كانت عاقبة عثرته الأولى صرعة قاضية في نهاية المطاف.

لهذا وغيره، أوصى أهل البيت سلام الله عليهم أصحابهم مراراً وتكراراً أن يحاسبوا أنفسهم كلَّ يوم. وقد أورد علماؤنا الأعلام ومحدّثونا العظام في كتبهم – مثل: أصول الكافي، وبحار الأنوار – باباً تحت عنوان «باب محاسبة النفس كل يوم». وهذه الوصايا الكريمة كلّها من أجل الحذر من العثرة، ولئلاّ تُبدّل – والعياذ بالله – إلى صرعة.

وأكثر من ذلك، هناك من العثرات الفرديّة ما يسري خطرها إلى الجماعة، فمثلاً: إذا كان ربّ البيت سيّئ الخُلُق، فإنّه سيؤثّر شيئاً فشيئاً في سائر أفراد الأسرة. وهكذا سيكون تأثير سوء الخلق لدى الحاكم أو المسؤول أكثر بكثير منه في الأفراد العاديين في المجتمع. كما أنّ الخطر الذي يحدق بالمتسلّق الواقف على قمّة الجبل، أكثر بدرجات من الخطر الذي يهدّد من لم يبدأ الصعود بعد. ولذلك كان الحذر المطلوب من الأوّل أكثر أيضاً، ومن ثم لو زالت قدمه قليلاً، فعليه الإسراع والمبادرة إلى تدارك موقفه، والرجوع بقدمه إلى حيث كانت، وإلا فإنّ الهلاك والموت مصيره المحتوم.

الصرعة بعد النبي

لقد أعقبت عثرة الناس بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما نكثوا بيعتهم لأمير المؤمنين علي سلام الله عليه صرعة لا تجبر، إذ لو كان الإمام سلام الله عليه قد أمسك بالحكم في تلك المدّة التي دامت خمساً وعشرين سنة بعد رحيل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فإنّ ظلماً واحداً ما كان ليقع، ولعاش الجميع وكذلك الأجيال المتلاحقة بنعمة الرفاه والسلام والاستقرار.

لقد أدّت عثرة إبعاد أمير المؤمنين سلام الله عليه عن السلطة والخلافة إلى صرعة تخطّي الطريق الذي رسمه النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإعادة الناس باسم الإسلام إلى الجاهلية العمياء. فالعثرة التي حدثت بعد الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله أهلكت جماعةً، وساقت جماعات آخرين باتجاه طريق الدمار تحت شعارات دينية في ظاهرها، دنيوية في باطنها. وقد تطرّقت روايات أهل

البيت سلام الله عليهم إلى حقيقة أن مردّ جميع ما وقع ويقع من الظلم إلى أولئك الذين حالوا دون العمل بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله الخاصّة بالسلطة والخلافة الحقّة، حيث كان من المفترض أن يخلف النبي صلّى الله عليه وآله من له الحقّ الإلهي في ذلك، وأن تتجنب الأمّة الانحراف، وتتّقي العثرة، لئلا تتحوّل الى صرعة.

عامل بني أمية والنجاة من الصرعة

علي بن أبي حمزة البطائني قال: كان لي صديق من كتّاب بني أمية، فقال لي: استأذن لي على أبي عبد الله سلام الله عليه فاستأذنت له فلما دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه. فقال أبو عبد الله سلام الله عليه:

«لولا أنّ بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئا إلا ما وقع في أيديهم».

فقال الفتى: جُعلت فداك، فهل لي من مخرج منه؟ قال:

«إن قلت لك تفعل؟»

قال: أفعل. قال:

«اخرُج من جميع ما كسبت في دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدَّقتَ به، وأنا أضمن لك على الله الجنّة».

قال: فأطرق الفتى طويلاً فقال: قد فعلت جُعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة، فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه.

قال: فقسمنا له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا له بنفقة.

قال: فما أتى عليه أشهر قلائل حتى مرض، فكنّا نعوده.

قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السياق ففتح عينيه ثم قال: يا عليّ وفّى لي والله صاحبك.

قال: ثم مات، فولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله سلام الله عليه فلما نظر إلي قال:

«يا عليّ وفينا والله لصاحبك».

قال: فقلت: صدقت جُعلت فداك، هكذا قال لي والله عند موته.[60]

وكيل الإمام يسقط في الصرعة

وأمّا علي بن أبي حمزة البطائني فقد بلغ من أمره أن انقلبت عثرته إلى صرعة!

فهو كان وكيلاً للإمام جعفر الصادق سلام الله عليه، وبعده أصبح وكيلاً للإمام موسى بن جعفر سلام الله عليهما، وحينما كان الإمام الكاظم رهين الحبس، جمع ابن أبي حمزة أموالاً كثيرة باسم الإمام، وبعد استشهاد الإمام الكاظم وانتقال الإمامة إلى الإمام علي الرضا سلام الله عليه، أعلن ابن أبي حمزة التمرّد وعدم اتّباع الإمام الرضا، وذلك لأنّه كان يعلم بأنّ إقراره بإمامة الإمام الرضا يعني ضرورة وجوب إعادة الأموال (الوجوه الشرعية) إلى إمامه الواجب الطاعة، لكنه اختار العمى على البصيرة – وهو الذي كان قد ساهم في إنقاذ كثير من الناس من ظلمات الضلالة – فاختار لنفسه مذهباً سُمّي فيما بعد بمذهب الوقف، أي إنّه وبعض من تبعه ممّن سقطوا في حضيض الضلال، وقفوا بالإمامة عند الإمام موسى الكاظم سلام الله عليه، مغلّفين ذلك بأغلفة عقائدية وفكرية باطلة.

والحال أنّه من المفترض المبادرة إلى قطع طريق الضلالة والذنوب، لأنّ من يكذب – مثلاً – يضطرّ للتغطية على كذبته الأولى إلى الانغماس في كذبة أخرى، فيتكاثر عليه الكذب، وتتوالى عليه العثرات، حتى تصرعه فيهلك، كما هلك ابن أبي حمزة.

وكما أنّ جراح الجسد لابدّ من معالجتها سراعاً، لئلاّ يضطرّ صاحبها إلى بتر عضو من أعضائه نتيجة الإهمال، فكذلك هي الجراح النفسية والدينية والاجتماعية؛ ما لم تتمّ مداواتها بالسرعة القصوى، فإنّها تنتهي بأصحابها إلى المهلكة.

ينبغي أن يتمّ التأكّد والتحرّز من أبسط قضايا الحياة ومشاكلها، للحيلولة دون الوقوع في المحارم والمآثم، فمن كان مجتهداً، عليه أن يجتهد، ومن كان مقلِّداً، عليه أن يسأل مرجعه، لكيلا تتحوّل عثرته إلى صرعة تقضي عليه نهائياً.

قيمة العمر

«يا أبا ذر، كن على عمرك أشحَّ منك على درهمك ودينارك.

يا أبا ذر، هل ينتظر أحدٌ إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً [61] ، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجّال [62] ؛ فإنّه شرُّ غائب ينتظر، أو الساعة.. فالساعة أدهى وأمرُّ»؟!

في هذه الفقرة تمّ الانتقال من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب؛ وذلك لأنّ أبا ذر رضوان الله تعالى عليه ليس مصداقاً للمقطع الثاني.

يتساءل النبي صلى الله عليه وآله من أبي ذر: ماذا ينتظر من لا يعرف قيمة عمره ويبادر إلى اصلاح أمر آخرته قبل فوات الأوان، ونراه يسوّف في ذلك؟ أينتظر أن يكون غنيّاً للقيام بذلك، والحال أنّ الثروة تأتي بالطغيان؟ أم ينتظر الفقر – بدعوى أنّه حين الغنى لا مجال له للعبادة والعمل – بينما الفقر يتسبّب عادة بالنسيان ومنه نسيان أو نكران النعم الأخرى؟ أم ينتظر المرض، والمرض بطبعه يتسبّب بفساد البدن؟ أم ينتظر الشيخوخة، وهي تنتهي بابن آدم إلى الضعف والعجز؟ أم ينتظر الموت الذي يقضي عليه؟ أم ينتظر ظهور الدجّال وقيام القيامة؟

كنّى النبي صلى الله عليه وآله بما سبق للإشارة إلى بطلان التسويف وأنّ الإنسان لا ينبغي له أن ينتظر حتى حصول حوادث كهذه، بل عليه المبادرة إلى إصلاح أمر الآخرة، بما يتضمّن ذلك اقتناص فرصة العمر التي لا تقدّر بثمن، وأن لا يؤجّل عمل اليوم إلى غد، ولا يقول مسوّفاً: إن أصبحت ثريّاً سوف أستخدم ثرائي في سبيل الله، لأنّ من طبيعة الغنى الطغيان. كما لا ينبغي أن يؤجّل التوبة وذكر الله تعالى إلى وقت المرض بدعوى أنّ الحاجة إذ ذاك ملحّة، لأنّ المريض بالأصل يكسل أو يضعف عن ذلك. كما أنّ الغنيّ بدوره لا يصحّ منه القول بأن لا فرصة لديه

لعمل الخير والمستحبّات، وأنّه إذا ما افتقر، التفت إلى العبادة وإيتاء المستحبّات، وأنّ المرحلة مرحلة بيع وشراء وتدوين وحساب، دون أعمال الخير والمستحبّات.

فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يؤكّد في هذه الفقرة من وصيّته المباركة على بطلان انتظار إعمار الآخرة، ويتساءل عمّا ينتظره الشخص المسوِّف، أينتظر أن يتبدّل فقره غنىً؟ بينما الغنى يوجب الطغيان عادةً، أم ينتظر أن يتبدّل غناه فقراً؟ والفقر [63] يُنسي صاحبه؛ وعليه لا يصحّ تأجيل العمل الصالح.

فمن كان في ذمّته حقّ من حقوق العباد، فعليه صناعة الفرصة، أو اقتناص أوّل فرصة لأدائه والتوبة عن ذنبه والتصميم على جبران ما فاته.

ومن كان قادراً على مساعدة الآخرين، فليهجر التقاعس، وهكذا الحال بالنسبة للشخص القادر على التأليف والنشر والتوزيع؛ لينهض بالمستوى الحضاري والثقافي للناس، ومن كان قادراً على العبادة فعليه أن يعبد.

وبكلمة أوضح: من أتيحت له الفرصة في إعمار آخرته، فليس له التأخّر والتكاسل عن ذلك، فقد لا تؤاتيه الفرصة مرّة أخرى.

البخل بالعمر

الفقرة الثانية من العبارة توضيح وتفصيل للفقرة الأولى.

ففي الأولى قال النبي صلى الله عليه وآله:

«يا أبا ذر، كن على عمرك أشحّ منك على درهمك ودينارك»

وفي الثانية تمّ التطرّق إلى أضرار عدم اغتنام فرصة العمر، إذ لا ضمانة في جبران خسائر الأمس. ويبدو أنّ هذا هو المورد الوحيد في الروايات الشريفة، تمّ فيه التوصية بالشحّ [64].

إنّ البخل بالمال صفة معيبة، ذمّتها النصوص الدينيّة وعدّتها سلوكاً قبيحاً، ولكن البخل بالعمر صفة ممدوحة، وقد أوصى بها النبي صلّى الله عليه وآله صاحبه أبا ذر الغفاري.

وما يلفت الانتباه هنا، هو أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله قد استخدم مفردة (شحّ) باعتبار أنّ الشخص المبتلى بالشحّ ليس مبتلىً بالبخل بأمواله فحسب، بل هو بخيل بأموال غيره

أيضاً، حيث يحول دون إنفاق الآخرين أموالهم في سبيل الله تعالى خدمةً ومساعدة لمن حولهم. فإذا رأى شخصاً يتصدّق على فقير، أو عزم على إنجاز عمل الخير، سعى حثيثاً لمنعه وتحذيره من الفقر والفاقة، تحت طائلة أهميّة التفكير بتغيّر الأحوال، بدلاً من أن يغبطه على كرمه والتصميم على أن ينافسه في أداء أعمال الخير.

مع ملاحظة ذلك، تبدو ضرورة أن يحرص المرء على عدم التفريط بعمره، لئلا يذهب به سدى ويضيّعه بالباطل. فالشحيح في العمر - عمره وعمر الآخرين - يستولي عليه الانزعاج إذا رأى غيره يفرّط بعمره. وطبعاً هذه حالة أرقى وأكثر تقدّماً من مجرد الشحّ بالعمر الشخصي، فترى صاحبها لا يتخلف عن توجيه النصح للآخرين بالحرص على أعمارهم.

روي أنّ الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه أورد في يوم عاشوراء خطبةً بكى لها أعداؤه القتلة، وهم الذين كانوا يصكّون أسماعهم أو يتظاهرون بعدم الالتفات إليه، أو كانوا يجيبونه بقبيح الردّ في أوائل الخطبة ذاتها، وقد قيل في سبب هذا التحوّل أنّ قلب الإمام الحسين سلام الله عليه كان يحترق على ما يرى في الأعداء من تفريط بأعمارهم؛ أعمار كان بمقدورهم أن يجعلوها كأعمار حبيب بن مظاهر أو زهير بن القين، أو الحرّ الرياحي، ولكنّهم أضاعوها، فتأسّف لهم سيّد الشهداء، ولذلك توجّه لهم بالنصح والموعظة.

نبيُّ الرحمة

تبدو العبارة أعلاه غايةً في الصحّة والمصداقيّة، ذلك لأنّ تاريخ المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم مفعم بالرحمة والشفقة، ففي ذلك اليوم الذي تكالب فيه المشركون على شخص رسول الله صلى الله عليه وآله لإيذائه وثنيه عمّا أعلنه من أمر النبوّة والرسالة، وحيث عمد فيه أطفال المشركين ونساؤهم على رجم النبي المصطفى بالحجارة في أزقّة مكّة وشوارعها وإيذائه بشدّة حتى قال:

«ما أوذي نبيّ مثلما أوذيتُ» [65] .

وكان بدنه كلّه يتصبّب دماً وألماً... فأنزل الله عزّ اسمه ملائكة من السماء ليعرضوا عليه مساعدتهم، وهو آنذاك بين الموت والحياة بعد شوط من الملاحقة والتنكيل و... ذرفت الدموع منه صلى الله عليه وآله، فقال له ملك من الملائكة عظيم: لو شئت يا رسول الله أضرب بجبال مكّة لتخرّ على أعدائك، بينما قال آخر: لو أذنتَ لي لزلزت الأرض من تحتهم وأفنيتهم عن آخرهم،

ولكن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبشفقة متناهية رفض هذه العروض، وتوجّه إلى ربّه الذي زرع فيه الرحمة وعلّمه الشفقه داعياً بالقول:

[66]

«اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

بلى، رغم أنّهم كانوا ينصبون أغلظ العداء والضغينة لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وكانوا يرمونه بالحجارة حتى فضخوا رأسه الشريف أكثر من مرّة، إلاّ أنّه كان يشفق عليهم ويطلب لهم الرحمة والمغفرة، وهذا نموذج غاية في الوضوح من شحّه حيال أعمار أعدائه الألدّاء، وحرصه على هدايتهم وإرشادهم.

العضّ بالنواجذ على لحظات العمر

قبل أربعين سنة مضت، كان رجل يعيش في مدينة كربلاء المقدّسة، وكان له بستان كبير خارج المدينة، فقرّر أن يبيعه، فعرض عليه شخص مبلغ ثلاثة آلاف دينار ثمناً لها – وكان هذا المبلغ يومذاك من الأهميّة بحيث يمكن أن يشتري به عشر كيلو غرامات من الذهب.

وبعد أن تمّت الصفقة، وحيث كان البائع يسير في الطريق، رآه أحد أقربائه، فسأله عن بستانه، فأخبره أنّه قد باعه بثلاثة آلاف دينار، فتعجّب السائل وقال له: لقد بعتَه بثمن بخس، ولو أنّك أخبرتني من قبل لعرضت عليك ستّة آلاف دينار! فلم يجبه الرجل وتوجّه إلى بيته، وهناك جلس يفكّر متحسّراً على ما فرّط في بستانه وكبير الخسارة التي مُنيَ بها، وفي غد ذلك اليوم أصيب بالسكتة القلبية وقضى نحبه، وكان خبر وفاته قد فاجأ وأفجع معارفه، لاسيّما وأنّ موت الفجأة (السكتة القلبية) لم يكن كثيراً في تلك الأيام.

هنا لابدّ من القول بأنّ عمر الإنسان أغلى وأكثر قيمة من البستان وسائر الممتلكات، ولعلّ الأقسى فجيعة أن يتنبه المرء على حين غرة أنّه قد باع أغلى ما يملك – وهو العمر – بأبخس الأثمان، والفجيعة والندم والحسرة تتجلّى لصاحبها بوضوح شديد وإن لم يكن من أهل الذنوب والمعاصي، لأنّ إضاعة العمر وحدها تجعل الإنسان يعاني أشد العذاب وأقسى أنواع تأنيب الضمير.

إنّ عمر كل فرد من أفراد الناس تماماً كعمر سلمان وأبي ذرّ وحبيب بن مظاهر وميثم التمار ومسلم بن عوسجة ورشيد الهجري وزرارة ومحمد بن مسلم الطحّان. فالساعات والأيام نفس تلك الساعات والأيام الخاصّة بأعمار هؤلاء العظماء.

لذلك ينبغي التفكير مليّاً في مدى ما نقضيه من أيّامنا على طريق التقدّم والرقيّ، فذاك الذي باع بستانه بثمن قليل عجز عن المقاومة حتى أصيب بالسكتة القلبية واستسلم، ولكن من قصرت يده عن الدنيا ويمّم وجهه شطر الدار الآخرة، مهما اغتمّ للتفريط بعمره، فإنّه لن يصاب بالسكتة وستكون حسرته حسرة أزليّة!!

لقد ذكرت الروايات، وقبل ذلك الآيات القرآنية الكريمة، أنّ الكافرين والمنافقين والفاسقين سيتحسرون في يوم القيامة على أنّهم لم يكونوا مؤمنين، والمؤمن المقصّر سيتحّسر على أنّه فرّط بعمره بنوع من التفريط، وأنّه لم يفد منه حقّ الاستفادة ومنتهاها، لاسيّما وأنّه سيرى باليقين أنّ أموراً من قبيل سوء الخلق وممارسة الكذب والخوض في مزيد من اللعب واللهو هي من مصاديق التفريط بالعمر، وفي المقابل أن ممارسة العبادة الخالصة والاستماع إلى الموعظة والقول الأحسن واتباعهما، والتعلّم كلّها تعدّ من مصاديق الاستفادة الحقّة من فرصة العمر.

إنّ من يجعل للعمر قيمةً باهضة، لن يتساهل في التفريط به، ولن يضيعه دون حساب، فتراه لا ينام أكثر من الحدّ المطلوب، ولا يقضي وقته في الراحة والترفيه إلا ما اقتضت الضرورة القصوى.

ترى كيف نعتقد أنّ من يبيع البضائع بأقلّ من ثمن شرائها مجنوناً، في حين لا نعتقد الاعتقاد ذاته بمن يضيع رأس ماله الوحيد في الحياة ووسيلته إلى حيازة الجنّة والرضوان الإلهي الأبدي، بثمن هو عبارة عن اللهو واللعب؟!

الغاية من التعلم

«يا أبا ذر، إنّ شرّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة: عالمٌ لا ينتفع بعلمه. ومَن طلب علماً ليصرف به وجوه الناس إليه، لم يجد ريحَ الجنة.

يا أبا ذر، من ابتغى العلم ليخدع به الناس، لم يجد ريح الجنة».

يحدّد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لنا في هذا المقطع من الوصيّة الأسوأ بين الناس، حيث يشير إلى أنّ الأسوأ هو من لا ينفعه علمه شيئاً، أو لا ينتفع ممّا تعلّم، أي من يعلم ما هي الموبقات – مثلاً – ثم يعمد إلى اقترافها. ومن الواضح أنّ مثل هؤلاء الأفراد قد ضلّوا وهم أعجز عن هداية الآخرين.

التعلّم لنيل المناصب

يواصل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله نصيحته لأبي ذر رضوان الله تعالى عليه ولكافّة المؤمنين، فيشير إلى أنّ من طلب العلم للحصول على المناصب ومغانم الدنيا، فقد حرم نفسه من ريح الجنّة، أي أنّه ليس يُمنع من دخولها فحسب، بل لا يمكنه الاقتراب منها أيضاً.

طبعاً، نلاحظ أنّ أكثر العلماء – من الناحية العملية – ينالون المناصب الدنيويّة الظاهرية، وأنّهم مع ما يحملون من العلم يتمتعون بمنزلة رفيعة، إلا أن ما يحدّد المصداق لقول النبي الأكرم هو نوع النيّة المبيّتة التي تدفع إلى كسب العلم، ولاشك في أنّ لكلّ فرد من الأفراد دافعه الخاصّ به وراء تحمّل مشاقّ طلب العلم.

ويلاحظ هذا التفاوت أيضاً في مختلف مناحي الحياة. فمن الناس من ينطلق إلى العمل لتأمين معاشه، وآخر يتاجر لأنّه يعلم بأنّ الكاسب – بالكسب الحلال – حبيب الله، وهو يريد أن يحقّق رضا الربّ المتعال، فالطرفان يصلان إلى أهدافهما، وكل منهما يؤمّن معاشه عن هذا

الطريق، ولكن ذلك الذي يقصد السوق تقرّباً إلى الله سبحانه، فإنّ كل عمله ثواب وأجر، ويكون عند الله أحبّ من ذلك المجرّد عن نيّة التقرّب، وليس له من همّ سوى تأمين معاشه، رغم أنّ ما يقوم به هو أيضاً سلوكٌ مطلوب وممارسة ضرورية.

التعلم وخداع الناس

«من ابتغى العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنّة».

النوع الآخر من العلماء الذين لن يجدوا ريح الجنّة ويحرمون من رؤيتها، أولئك الذين يسعون وراء العلم، ولكن هدفهم من التعلّم كسب القدرة على خداع الناس، وإرادتهم تصيير الباطل حقّاً والحقّ باطلاً.

فالابتغاء يعني الطلب، و«من ابتغى العلم» أي من سعى وراء العلم، وهو بطبيعة الحال يجهد جهده لكسب العلم، إلاّ أنّ دافعه لذلك هو التعلّم لبسط هيمنته على أذهان الناس ليجرّهم إلى حيث يريد هو، لا إلى حيث يريد الله تعالى.

وليس هذا النوع من الدوافع بالجديد، وإنّما هو دافع عرفه الإنسان منذ القدم، ومثال ذلك ما يعرف بمذهب السفسطائيين والسفسطة[67] حيث تمّ التخطيط لنشر وتوسعة وتفعيل هذا النوع من التفكير لخلط الحقّ بالباطل، والتأسيس للمغالطات الفكرية في القضايا الحقوقيّة، والذين اشتغلوا بهذا الشغل عكفوا على دراسة الفلسفة والحقوق، فتعلّموا بشكل رسميّ أصول المغالطات، ليلبسوا الحقّ بالباطل أثناء المرافعات القانونية.

مقياس العمل

كثير من الناس يدرسون ويعظون ويهدون الآخرين إلى الصراط السويّ. وكثير من الناس يمارسون الكتابة والتأليف، وكلٌّ منهم يشبه الآخر، ويعمل كلّ منهم – حسب الظاهر – كما يعمل سواه، غير أنّ العامل الذي يميّزهم شيءٌ يمكن تسميته: (النيّة) وهي التي تفرّق وتميّز الطرفين في حقيقة الأمر أو عالم المعنى.

وهناك أربعة عناصر تمثّل ملاكات لتقييم عمل وسلوك الإنسان عموماً، وهي:

1. النيّة.

2. كيفيّة العمل.

3. كميّة العمل.

4. نتيجة العمل.

وجميع هذه العناصر دخيلة ومؤثّرة في تحديد قيمة العمل، إلا أنّ عنصر «النيّة» له من التأثير الكبير ما يفوق غيره من العناصر بصورة مباشرة وحسّاسة.

إنّ النيّة بمثابة الجوهرة الأصيلة والمحور الذي يحدّد لكلّ عمل قيمته المناسبة، والله سبحانه وتعالى من جانبه محيط بجميع النوايا ولا يعزب عنه أمر من الأمور ونيّة من النوايا. ومن جانب آخر لا مناص من القول بأن توجّهات النفس ومسيراتها الإيجابيّة والسلبيّة لها تأثير بالغ على طبيعة الحياة الاجتماعية والدينية والسياسيّة للإنسان.

وتعتبر حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل درس وخير مثال لفهم هذه الحقيقة. فقد كان الأصحاب جميعاً يحيطون بالنبي ويتردّدون عليه ليستلهموا منه القضايا والمباحث العلمية والأحكام والبصائر الدينيّة، ولكن نيّاتهم المخلصة أو غير المخلصة هي التي جذبت كلاً منهم إلى طريق معيّن، وانتهت بهم إلى هذا المصير أو ذاك. ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ نيّة «سلمان المحمّدي» الخالصة قد بلغت به حدّاً وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بالقول: «أنت منّا أهل البيت» [68].

وليس أبو ذر غريباً عن هذه المنزلة الأسمى، إذ إنّه لم يسئ إلى أحد، وكان إلى جانب أبي ذر أشخاص تتلمذوا على يدي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله واستلهموا من علمه المتصل بالوحي، ولكن أبا ذر وسلمان وأمثالهما هم الذين بلغوا هذه القمّة السامقة.

إنّ أقوال وأفعال وأفكار النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله كانت كلّها علوماً سماويّة ومعارف إلهيّة، وكان كلّ واحد من الأصحاب يستلهم من وجوده المقدّس ما يستلهم، وفي الوقت ذاته كانت في مواقف بعضهم ما يبعث على الحيرة والتعجّب، لاسيّما للأجيال التي تلتهم، فرغم أنّهم جميعاً كانوا يأخذون عن رسول الله صلى الله عليه وآله، إلاّ أنّ نواياهم المتباينة دفعت كثيراً منهم إلى السقوط في المهاوي السحيقة بصورة لا تُصدَّق، وكان أحد هؤلاء الأصحاب رجل يسمى (القعقاع).

فمع أنّ ما تلقّاه القعقاع من النبي صلى الله عليه وآله لم يكن من ناحية الكم بأقلّ من غيره من الأصحاب، إلاّ أنّه لم يكن يتمتع بنيّة وشخصية وسلوك طاهر نزيه، وكان يمتاز بالعنف المفرط مع الناس، حتى أنّه سلك سلوكاً شيطانيّاً مع سكّان إحدى القرى غير المسلمة التي كان يفترض به

أن يدعو أهلها إلى الإسلام والسلام، ولكنّه عمد إلى تقسيمهم عدّة أقسام، فمنهم من حرق، ومنهم من رمى من فوق الجبل، ومنهم من رجم، ودفن بعضهم أحياءً في الآبار.

وإذا قارنّا الآثار الوجوديّة الخاصّة بأبي ذر بما يميّز هذا الشخص – القعقاع – اتّضح لنا مستوى تأثير النيّة على الإيمان. فأبوذر رحمه الله تعالى لم يكن له سلطة أو جيش أو ثروة، وإنّما كان سلاحه الوحيد نيّته الطاهرة وسلوكه القويم مع جميع سكّان ما يدعى الآن بجنوب لبنان، حتى هداهم بذلك إلى الانتماء لمدرسة أهل البيت سلام الله عليهم واتّباع سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، في حين كان لعنف القعقاع وخشونته اللئيمة ومئات الأشخاص من أمثاله ردّة فعل عكسيّة في مواقف سكّان المناطق غير المسلمة، فزادوهم بعداً عن الإسلام والقرآن، فتسبّب هؤلاء (الأصحاب) باستفحال العداء من قبل الكفّار لدين السماء الحقّ. وإنّ المؤكّد في الأمر هو أنّ سبب عدم إسلام الناس في مختلف مناطق العالم يعود إلى نوع سلوك القعقاع وأمثاله الذين كانوا شرّ سفراء و(فاتحين).

مصير العنف

لقد ضرب أشخاص مثل القعقاع وخالد مثلاً للعنف والخشونة، ولم يخلّفوا وراءهم غير التنفّر والعناد والحقد.

ومن الشواهد على ذلك الاختلاف بين كيفية مبايعتهم من قبل الأمّة وكيفية مبايعة الإمام علي سلام الله عليه. فقد روي أنّهم قيّدو الإمام سلام الله عليه بالحبال ووضعوا السيوف على رقاب الثلّة من حوارييه لأخذ البيعة منهم قسراً؛ فيما أعلن أمير المؤمنين سلام الله عليه – وهو الإمام المنصوب بنصّ القرآن الكريم ووصيّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله – أنّ الناس جميعاً غير مجبَرين على مبايعته، وكان إذا قيل له: إنّ فلاناً وفلاناً لم يبايعا، وإنّ من الضروري إجبارهما وغيرهما من أمثالهما على البيعة، كان سلام الله عليه يرفض ذلك رفضاً قاطعاً، ولعلّه كان يكتفي في بعض الحالات بالحوار الهادئ معهم، أو يذكّرهم ما سبق منهم من المبايعة له في واقعة الغدير، أو بما سمعوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كونه الإمام والخليفة الشرعي دون سواه.

الإسلام يرفض العنف

إنّ من الممكن جدّاً نشر الإسلام والتبليغ له من دون استخدام القوّة والسيف. وقبل ذلك لابدّ من تحديد موقف الدين من العنف وممارسة القوّة واستعمال السلاح. إن الإسلام لم يشرع استخدام القوّة إلا حين الدفاع وردّ الاعتداء أو الهجوم المعادي، وقد طلب أهل البيت سلام الله عليهم منّا أن نكون لهم خير دعاة، فقد روي عن الامام الصادق سلام الله عليه:

«كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً» [69].

وثمّة مثل رائع للسلوك المسالم والداعي للأمن والسلام كان له أكبر الأثر في اعتناق الناس للإسلام، وهو السلوك الشخصي للنبي المصطفى صلى الله عليه وآله بعد فتح مكّة المكرّمة. لقد كانت مكانة أبي سفيان في الإسلام معلومة، فهو الذي أعلن منذ بدء الدعوة رفضه ومعارضته للحركة الربانيّة المحمديّة الوليدة، وقد كرّس كلّ جهوده ووظّف حياته وجميع ما يملك لطمس نور الإسلام وتصفية شخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ورغم هذا التاريخ الأسود لأبي سفيان إلا أنّ النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله جعل من بيته محلاً آمناً وقال بكلّ صراحة:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» [70].

ومن الواضح أنّ هذا العفو والكرم لا نظير لهما عبر التاريخ، فأين نجد قائداً قد جعل دار عدوّه الألدّ والأكثر حقداً عليه وعلى مبادئه وأصحابه محلّ أمن وسلام.

إنّ سعة لطف ورحمة نبيّنا المصطفى صلى الله عليه وآله بلغت حدّاً يعجز الآخرون عن دركها، ولم يبقَ لهم إلا اتباعه بما أمكنهم.

قصة أخوين

كان في عهد الإمام الجواد سلام الله عليه أخوان يعيشان بين المسلمين، وفي قصّتهما خير نموذج لدرك ما للنوايا من التأثير في سلوك وشخصيّة ومصير كلّ إنسان.

هذان الأخوان هما محمد بن فرج الرخجي وعمر بن فرج الرخجي، عاشا في جوّ عائليّ واحد، فبلغ محمد فيها القمّة حين أصبح من الأصحاب المقرّبين والأوفياء للإمام الجواد سلام الله عليه. وقد نُقلت في كتابَي (جواهر الكلام) و(وسائل الشيعة) روايات عن محمد بن فرج باعتباره راوية ثقة، وأحد أصحاب الإمام المعصوم سلام الله عليه. بينما كان أخوه عمر على النقيض منه

تماماً حيث اشتهر بالظلم والوقاحة وخدمة المجرمين، من أمثال: هارون والمأمون والمعتصم والمتوكّل.

وفي تلك البرهة حيث كان محمد منشغلاً بتحصيل العلوم الحقّة وجمع الأحاديث والروايات ونقلها، كان أخوه عمر منهمكاً في ظلم الشيعة وقمعهم وتدميرهم.

فبعد استشهاد الإمام موسى الكاظم سلام الله عليه على يد طاغيته الجلودي وبأمر من هارون العباسي مباشرة، أوعز هذا الأخير له بمصادرة أموال وممتلكات أسرة الإمام الكاظم، ثمّ أمر بتعيين عمر بن فرج والياً على المدينة ومكّة، وأصدر له مرسوماً يبلّغه الناس، ويقضي بمنع التعامل مع العلويين، بل بلزوم الامتناع عن التحدّث إليهم.

واستمرّت هذه الجرائم والمضايقات الشديدة حتى زمن الإمام الجواد سلام الله عليه، وكان عمر بن فرج الرخجي والياً في مكّة والمدينة، وكان يمعن في معاقبة كلّ من يحاول كسر طوق المحاصرة العباسية اللئيمة ضدّ العلويين، بحيث يصادر جميع أمواله ويجلده ضمن التحقير وإسقاط الشخصية وهدر الكرامة.

وقد ورد في التاريخ تعبير خاصّ لهذا النوع من العقوبة، فكان يقال: «أنهكه عقوبة وغرماً» أي حقّر شخصيّته وأهدر كرامته و«غرماً» إشارة إلى مصادرة أمواله، أي إنّ كل من كان على علاقة طيبة بآل عليّ بن أبي طالب سلام الله عليهم، كان جزاؤه أن يزاح عن الوجود، وأن تصادر أمواله كافّة.

واستمرّ التعذيب والتنكيل والإرهاب إلى زمن المتوكّل العباسي، حيث وصل الحال بقضيّة مصادرة الأموال إلى أنّ النساء الهاشميّات كن لا يخرجن من بيوتهنّ لعدم امتلاكهن العباءات الكافية، بل كن جميعاً يصلّين بعباءة واحدة على الترتيب، وقد وصفتهن بعض الروايات بأنهنّ كنّ حواسر.

قال أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: وكان المتوكّل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم، مهتمّاً بأمورهم، شديد الغيظ والحقد عليهم. ثم ذكر من ذلك كرب قبر الحسين سلام الله عليه وعفاء آثاره.

(إلى ان قال): واستعمل على المدينة ومكة عمربن الفرج الرخجي فمنع الناس من برّ آل أبي طالب، وكان لا يبلغه أنّ أحداً برّ أحداً منهم بشيء وإن قلّ إلاّ انهكه عقوبة وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة ثم ينزعنه ويجلسن على

مغازلهن عواري حواسر! إلى أن قُتل المتوكّل فعطف المنتصر عليهم وأحسن إليهم ووجّه بمال فرّقه فيهم، وكان يؤثر مخالفة أبيه في جميع أحواله ومضادّة مذهبه طعناً عليه ونفرة لفعله [71] .

وكان الوضع على هذه الصوره طيلة حكم المتوكّل، وكان الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم قد اختاروا أسلوب الصبر والتحمّل دون أن يستفيدوا من قدراتهم المادّية أو المعنويّة في حين كان القضاء على السلطة العباسيّة برمّتها ليس بالأمر الصعب بالنسبة للأئمة سلام الله عليهم، وهم الذين يتمتّعون بأقرب المكانة لدى الله القادر المتعال.

وكان سبب ذلك التحمّل والصبر – حسب ما جاء في الروايات – امتحان الناس، حيث ينبغي أن يُميَّز الخبيث من الطيّب، ويرتقي من هو جدير بالرشد والتكامل إلى أعلى المراتب، ويختبر ما يحمل من الإرادة، فالجميع يجب أن يعرضوا للفتنة والبلاء.

فكان الحكّام وأتباعهم من جهة، والأئمّة وأتباعهم من جهة أخرى يمثّلان فريقين يتعرّضان للاختبار الإلهي، لكي ينال فريقٌ الخزي والعذاب، ويستحقّ الفريق الآخر رضوان الربّ وجنان الخلد والرحمة الأبديّة، ولتكون حيواتهم خير نموذج وقدوة حسنة لمن أراد النجاة من الشيطان والموبقات والعذاب الأخروي.

إنّ كلا الفريقين روّضوا أنفسهم وربّوها، ولكنّ العلويين روّضوها بشكل، والعباسيين وشياطينهم وعتاتهم بشكل آخر، أي إنّ الجميع كانوا يستعدّون للقاء مصيرهم. وقصّة الامتحان والاختبار، والتكامل أو السقوط، قصّة لا تنتهي، واليوم وكلّ يوم يعيش الناس جميعاً في ساحة الامتحان.

قَالَ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ سلام الله عليه فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، حَدَثَ بِآلِ فَرَجٍ حَدَثٌ؟ فَقُلْتُ: مَاتَ عُمَرُ. فَقَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) حَتَّى أَحْصَيْتُ لَهُ أَرْبَعاً وَعِشْرِينَ مَرَّةً. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَسُرُّكَ لَجِئْتُ حَافِياً أَعْدُو إِلَيْكَ.

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوَلا تَدْرِي مَا قَالَ – لَعَنَهُ اللَّهُ – لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي؟ قُلْتُ: لا.

قَالَ: خَاطَبَهُ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: أَظُنُّكَ [72] سَكْرَانَ. فَقَالَ أَبِي:

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَمْسَيْت لَكَ صَائِماً فَأَذِقْهُ طَعْمَ الْحَرْبِ وَ ذُلَّ الأَسْرِ.

فَوَاللَّهِ إِنْ ذَهَبَتِ الأَيَّامُ حَتَّى حُرِبَ مَالُهُ وَمَا كَانَ لَهُ ثُمَّ أَخِذَ أَسِيراً وَهُوَ ذَا قَدْ مَاتَ – لا رَحِمَهُ اللَّهُ – وَقَدْ أَدَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ وَمَا زَالَ يُدِيلُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ.[73]

فالإمام اتّخذ من علم الله تعالى شاهداً عند الله نفسه، مشيراً إلى براءته من فداحة التهمة الموجّهة إليه.

استجابة دعاء الإمام الجواد

بقي عمر هذا في منصبه والياً على المدينة ومكّة إلى ما بعد استشهاد الإمام الجواد سلام الله عليه. وبعد ذلك تمّت الاستجابة لدعائه، فبسبب وقوع بعض الأحداث والتقلبات السياسيّة، غضب المتوكّل على عمر وأمر بمصادرة جميع أمواله وممتلكاته وخدمه، ثمّ ألقاه في السجن، وقيده بما يزيد على ثلاثمائة كيلو من الحديد في رقبته ويديه ورجليه، وأصبح عرضةً – بأمر المتوكل – للضرب وتصاعد عدد الجلدات في كل يوم بصورة منتظمة.

إنّ الفرد يجب أن يحافظ على نفسه، فمن العذاب الدنيوي ما لا يخطر على بال ابن آدم، فكيف بالعذاب الأخروي؟!

وتمرّ الأيام، ولا يجد عمر بن فرج سوى الأغلال والإهانة والفقر ومضاعفة الجلدات حتى بلغ عددها ستّة آلاف جلدة، وتخلّصت منه البشرية ذات يوم، إذ رحل إلى حيث ما ينتظره من العذاب الأخروي إزاء ما خان المسلمين واضطهد أولياء الله تعالى وحارب قانون السماء، إرضاءً للطغاة الزائلين، ورغبةً في بعض المال والسلطة.

اقتران العلم بالعمل

«يا أبا ذر، يطلع قومٌ من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وقد دخلنا الجنّة لفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله».

الخطاب في هذا الفصل من وصيّة النبي صلى الله عليه وآله موجّه إلى أهل العلم.

يؤكّد الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّ العلماء «أفضل الناس – أكثرهم فضيلة – إذا سلموا» وكانوا نزيهين مخلصين. ولكنّهم إن كانوا غير ذلك، فهم أسوأ الناس، ويكونون مصداقاً لقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الوصية، حيث أشار إلى أنّهم سيساقون إلى جهنّم، ثمّ يرون بعض الناس من أهل الجنّة كانوا قد تربّوا وتأدّبوا على أيديهم فنجوا، فيتوجّه الناجون إلى هؤلاء عن سبب دخولهم النار، فيجيبونهم قائلين: «إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله».

صحيح أن نيل المراتب العلمية العالية وبلوغ درجة الاجتهاد بحاجة إلى مزيد من الجهد، ولكن بلوغ الفرد لمرتبة (الإنسانيّة) يحتاج إلى جهد أكبر.

لقد نُقل عن الشيخ الأنصاري رحمه الله بأن قال: «أن يكون المرء عالماً فذاك أمر مشكل، ولكن أن يكون إنساناً فذاك أمر أشكل».[74]

الشيطان وتزكية النفس

في قضيّة تزكية النفس والتحوّل إلى إنسان، ثمّة عدو لدود يسمّى الشيطان، وقد أقسم على عدم السماح لأيّ إنسان بالتقدّم والتطوّر فيما يتعلّق بالأمور المعنويّة، ولا ننسى أنّه لا قيمة للعلم وحياة ابن آدم عموماً دون إحراز التقوى والالتزام بقوانين السماء، ولذا قال أحد الشعراء معبّراً عن هذا المعنى الكبير:

لو كان للعلم من غير التقى شرف   لكان أشرف خلق الله إبليس

إنّ علم إبليس أكثر من علم الناس [75]، ولكنّه لا تقوى له، وتلك كانت مشكلته، ولذلك فإنّ من له علم، ولا تقوى له، فإنّه في واقع الأمر لا يحقّق شيئاً في إطار التقدّم والتطوّر الإنساني.

إنّ الشيطان لا يتربّص بالقتلة والسرّاق والمفسدين فحسب، وإنّما سخّر كلّ قواه وأسلحته لصدّ العلماء والصالحين أيضاً، بل إنّ اهتمامه بتخريب شخصيّة العالم أكبر بكثير من اهتمامه بسائر الناس، ذلك لأنّ العالَم برمّته قد يفسد بفساد العالِم. وقد قيل: «صلاح العالِم صلاح العالَم، وفساد العالِم فساد العالَم».

إنّ الدنيا تصلح وتعمر بصلاح العالِم، وفساد العالم يعني خراب الدنيا وما فيها، لأنّ المفترض بأهل العلم أن يكونوا القادة الفعليين للحركة الإنسانيّة، فما بالك إذا فسد قادة المجتمع وأصبحوا يوجّهونه نحو الشرّ والفساد؟!

وقد قال الله عزّ اسمه في القرآن المجيد:

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المؤمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهمْ يَتلُو عَلَيهِمْ آياتِه وَيُزَكّيهِمْ وَيُعلِّمُهُمْ الكتابَ والحكمةَ) [76].

فقدّم سبحانه التزكية على التعليم، لأنّ العلم من دون التزكية لا ينفع، وعلى المرء أن يكتسب القدرة لإصلاح نفسه، ومفتاح ذلك بيد الإنسان نفسه.

صفات النبي

ورد في كتاب (الإقبال) للسيّد ابن طاووس وبعض الكتب الأخرى حديث قدسيّ خاطب الله تعالى فيه أبانا آدم عليه السلام وبيّن له ثلاث صفات لنبيّ آخر الزمان صلى الله عليه وآله، فقال:

«لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سخّاب» [77].

وقال الله تعالى في القرآن العظيم مخاطباً نبيّه الكريم:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...) [78] .

وقد قيل في معنى الفظّ والغليظ القلب: أنّ أحدهما يشمل الآخر، فإذا قيل: فظّ، شمل من كان غليظ القلب، والعكس صحيح، وهما في ذلك مثل كلمتي: الفقير والمسكين من حيث الاستخدام. ولكن إذا استخدما أي الفظّ والغليظ القلب معاً فيقصد بالفظاظة: الخشونة الظاهرية، وبغلظة القلب: الخشونة الباطنية.

قد تعترض المرء قضية يغضب جرّاءها كلّ الغضب، ويحمل بسببها الحقد، إلاّ أنّ ملامح الغضب لا تلوح على محيّاه، بل تراه يحافظ على هدوئه وابتسامته، فيقال لمثل هذا الشخص: غليظ القلب. وقد يحدث أن لا يغضب الفرد في باطنه، ولكنّه يُظهر على ملامحه الانزعاج، فيقال إنّه فظّ.

وفي الحديث القدسي المتقدّم الذكر تمّت الإشارة إلى ثلاث من صفات النبي صلى الله عليه وآله، وهي أنّه ليس فظّاً ولا غليظ القلب ولا مرتفع الصوت في الكلام. أي إنّ الرسول المصطفى كان رغم ما قد يتعرّض لما يزعجه – وهو كثير جداً – يحفظ احترامه في الظاهر، ولا شكّ أنّ هذه الصفة ليست نفاقاً أو مجرّد تظاهر، بل هي من خصائص وفضائل المؤمنين، وقد جاء في كلام أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«المؤمن بِشره في وجهه، وحزنه في قلبه» [79] .

فلا يجدر بالإنسان أن يظهر على لسانه كلّ ما في قلبه. فقد كان النبي صلى الله عليه وآله لا يحبّ العديد من أصحابه، وتارة يدلي ببعض الحديث لإتمام الحجّة، ولكنّه كان يهتمّ مطلق الاهتمام للمحافظة على كرامة الآخرين وصيانة الحدود، باعتبار أنّ الإنسان المؤمن لا يصحّ منه أن يبدي استياءه – بشكل مباشر على الأقلّ – لمن يشعر بالانزعاج تجاههم، وإنّما الفضيلة في عدم إظهار ذلك حتى آخر لحظة من لحظات العمر. أما إذا كان في الأمر ضرورة قصوى، كأن يكون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مما لا إشكال فيه.

لا ينبغي للمؤمن أن يكون فظّاً، ونظرته يجب أن تكون نظرة لطيفة ودودة، وكذلك يجب أن يصطبغ حديثه بصبغة الليونة، وهذه الصفات بمستطاع الناس تحقيقها في أنفسهم، وهي قد تكون صعبة، ولكنّها غير مستحيلة.

تعاليم رسول الله

من الضروري جدّاً مطالعة سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في جميع أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وقد ورد في ذلك رواية عن المعصوم سلام الله عليه يصف فيها أخلاق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله:

«كان صلَّى الله عليه وآله خُلُقه القرآن» [80].

كما ورد أيضاً أنّ قوماً من هوازن جاءوا لحرب النبي صلى الله عليه وآله وصمّموا على إبادة المسلمين، وكان جمعهم كبيراً، ولكنّهم خسروا الحرب وهرب رجالهم وخلّفوا نساءهم وراءهم، وأُسِر منهم حوالي ستّة آلاف شخص، فما كان من النبي الكريم إلا أن أطلق سراحهم جميعاً دون أن يتقاضى عن ذلك درهماً واحداً أو يشترط شرطاً، الأمر الذي دفع بكثير من اليهود والنصارى والمجوس إلى اعتناق الإسلام، وهذا نموذج من فضائل النبي صلى الله عليه وآله.[81]

إنّ الأخلاق ليست بالبشر وحده، فرغم ما هو متعارف اليوم عن فضيلة طلاقة الوجه، ولكن هذه الخصلة لا تمثّل بمفردها خُلُق الإسلام.

لقد كان جميع أسرى هوازن مشركين، ولكن النبي صلى الله عليه وآله كان رحمة للعالمين جميعاً وليس للمسلمين والأقارب، وبناءً على ذلك أمرنا القرآن الكريم بأن نتّخذ نبيّ الإسلام قدوة وأسوة حسنة، وتلك كانت أخلاقه بعد الحرب.

فإذا كانت هذه أخلاق النبي صلى الله عليه وآله فهل يصحّ من مسلمَين تخاصما جرّاء خلافٍ ما قد زالت أسبابه، أن يظلاّ متخاصمَين طيلة عمرهما؟ وهل هذا يمثّل الأخلاق الإسلامية؟

رسول الله في أحد

لقد عانى النبي صلوات الله عليه وآله أشدّ المعاناة في معركة أحد، عندما ضربه أحد المشركين فأصاب أسنانه بحجر فكسر رباعيّتيه، فيما أصابه آخر في جبهته المقدّسة فجرحها حتى جرى دمه الطاهر على وجهه المبارك، كما انشقّت شفته وجرحت يده، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وغادر الجميع ساحتها، تألّم الصحابة للمنظر الدامي للنبي، واعتصرت لذلك قلوبهم، فقالوا

له: يا رسول الله، إنّك مستجاب الدعوة، فادعُ على الكفّار والعنهم. ولكنّه ردّ على ذلك بالقول: «إنّي بُعثتُ رحمةً» ثم دعا الله ربّه مبتهلاً: «اللهمّ اهدِ قومي؛ فإنّهم لا يعلمون».[82]

عقّب القاضي نور الله التستري رحمه الله بعد نقل هذه الرواية بإيراد عبارة لطيفة تنمّ عن الفطنة وعمق التحليل، فقال: إن رفض شخص أن يلعن غيره، فإنّه يختار الصمت على الأقلّ، إلا أنّ النبي وفضلاً عن عدم لعنه ألدّ أعدائه، فقد دعا لصالحهم وطلب من الله تعالى لهم الهداية، وهم الذين يستحقّون الدخول إلى جهنم.

يقول أكثر الناس: إنّ الإساءة من العدوّ مفهومة ويمكن تحمّلها، ولكن الإساءة من الصديق لا يمكن تحمّلها بحال – وهي مغالطة شائعة في المجتمع – بينما نرى النبي صلى الله عليه وآله لا يوجّه الإساءة والإهانة حتى إلى أعدائه.

يقول القاضي نور الله: لم يتوجّه النبيّ باللعن، بل طلب للكفّار المعذرة إلى الله تعالى وقال: إنّهم لا يعلمون.

نموذج آخر لسماحة النبي الأعظم

ذُكر أنّ أحد المشركين، وكان يدعى غورث بن حارث – واسمه كان شائعاً في أيّام الجاهلية، ويعني جائع – رأى النبي المصطفى صلى الله عليه وآله مستلقياً في ظلّ شجرة، فوصل عنده حتى وقف فوق رأسه وشهر سيفه وقال له: من ينقذك منّي يا محمد؟

فأجابه النبي من فوره: «الله» وقفز من مكانه، حتى انزلقت قدم غورث وسقط السيف من يديه، فسارع النبي إلى السيف ورفعه بوجه غورث وقال له: «الآن من ينقذك منّي؟» فأبدى ندمه على ما صدر منه سلفاً وقال للنبيّ: إحسانك يا محمّد!

فتنحّى النبي جانباً وعفا عنه، فأسلم غورث على يديه الكريمتين، ثمّ عاد إلى قومه وقال لهم: لقد عُدت من عند أفضل خلق الله.[83]

أجل، لقد كانت أخلاق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من العظمة بحيث أذعن لها واعترف بعظمتها أعتى أعدائه، وحقيقة الأمر تشير إلى نوع من إتمام الحجّة الإلهية، فلا يكون ثمّة عذر لأحد في يوم القيامة: **(لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ)**[84] .

استحالة أداء حقوق الله كلّها

«يا أبا ذر، إنّ حقوق الله جلّ ثناؤه أعظم من أنْ يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن امسوا وأصبحوا تائبين».

يثير النبي المصطفى صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من الوصيّة انتباه أبي ذر رضوان الله تعالى عليه إلى ثلاث قضايا، وهي: العبادة، والشكر، والتوبة.

كما يؤكّد صلى الله عليه وآله بأنّ حقوق الله سبحانه وتعالى على درجة من العظمة بحيث تعجز جميع المخلوقات عن أدائها، وإن استخدموا مطلق قابليّاتهم وواصلوا العبادة والشكر طيلة أعمارهم.

ومن لا طاقة له على تقديم الشكر المطلوب، يفترض به أن يلتزم بواجب التوبة والاستغفار والتضرّع إلى الله تعالى، لعلّه يجبر ضعفه وعجزه عن أداء حقّ الشكر لربّه.

ولعلّ إحدى فوائد وآثار الإقرار بالعجز عن أداء الشكر لله تعالى أن لا يصاب المرء بالغرور والعجب بطاعاته وعباداته.

العجب بالعبادة

من مؤامرات الشيطان ومكائده أنّه يستهدف عبادة ابن آدم ليمزج معها العجب والغرور، بمعنى أنّه قد لا يوسوس للعابد – في بعض المرّات – بارتكاب هذا الذنب أو ذاك، وإنّما يقصد العبادة بحدّ ذاتها ليصيبها في الصميم، ويأتي على إيمان الإنسان ويهدمه من أسسه.

فقد يقوم المؤمن بأداء صلاته بنيّة خالصة وحضور قلبيّ مقترن بالخضوع والخشوع، ولكنّ الشيطان يدخل عليه من نافذة صلاته ليقول له: لا أحد يصلّي مثلك، ويمتدح ما عنده من الخشوع والتوجّه، حتى يلقي في روعه العُجب والغرور، فيعبّد جادة الانحراف في قلبه وعقله.

عن الإمام الصادق سلام الله عليه قال: قال رسول صلّى الله عليه وآله: بينما موسى عليه السلام جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس [85] ذو ألوان، فلما دنا من موسى عليه السلام خلع البرنس وقام إلى موسى فسلّم عليه. فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنت فلا قرّب الله دارك. قال: إنّي إنّما جئت لأسلّم عليك لمكانك من الله. قال: فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم. فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسُه، واستكثر عملَه، وصُغر في عينه ذنبه. [86]

وروي عن الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال:

يدخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق [87] فيخرجان من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك أنّه يدخل العابد المسجد وهو مدلّ بعبادته ويكون فكره في ذلك ويكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه؛ فيستغفر الله من ذنوبه. [88]

والعلّة في ذلك تكمن في أنّ الرجل الصالح قد أدّى عبادةً معيّنة في المسجد، ولم يظلم أحداً، ولكنّه حينما همّ بالخروج، خرج وهو «مدلّ بعبادته» أي أنّه قد دخله العجب واغترّ بعبادته، وهذه الحالة لا تحتاج إلى حركة أعضاء وجوارح، وإنّما الله **(يَعلَمُ السِرَّ وَأخفى)** [89] ولذلك خرج الصالح فاسقاً بعد أن كان عابداً.

ولكن الفاسق دخل المسجد فرأى صاحبه العابد بحالة من الخضوع والخشوع يتعبّد ويستغفر، ففكّر في نفسه وقال: إذا كان هذا الصالح يتعبّد ويستغفر ويخشع ويخضع، فالويل لي مما ارتكبت من الذنوب، ثمّ تكرّست في ذاته حالة من الندم والتوبة، علماً أنّه لم ترد في الرواية كلمة تشير إلى أن الرجل الفاسق قد مارس الصلاة أو الدعاء داخل المسجد، وإنّما تمّت الإشارة فيها إلى مجرّد الندم والتوبة القلبية، وهذا ما اعتبرته الرواية الكريمة عبادة حقّة.

أجل، لا ينبغي الاغترار بالعبادة، لاسيّما وأنّ حقّ الله تعالى كبير إلى حدّ يعجز فيه العقل عن حدّه والعلم عن وصفه؛ مهما عظما واتسعا، كما تعجز كلّ عبادة وكلّ شكر عن مجاراة عظيم حقّ الله تعالى أو الدنوّ منه.

ولوصف المعنى نقول: لو أنّ رجلاً فاحش الثراء استضافه صديق له فقير، فإنّ هذا الأخير سوف لا يسعه تقديم ما يناسب صديقه الثريّ من طعام ومجلس مهما جهد وسعى، رغم أنّه قد يبذل الكثير من الطاقة والجهد، فتراه يجد نفسه مضطراً إلى الاعتذار إليه على قصوره أو تقصيره، رغم

علمه بأنّه حرص على أن لا يبدو مقصّراً، ذلك لأنّ له عقلاً يميّز به حقيقة أنّ ما قدّم غير لائق بضيفه.

وكذلك شأن العبادة، فمهما بدت لصاحبها متكاملة إلا أنّها غير لائقة على سبيل الحتم بمقام الربوبيّة الأجلّ الأقدس، هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى قد قبل عبادات الأنبياء والصالحين وكثير من العباد، وهو غير محتاج لهم أو لعباداتهم.

ولكن لشديد الأسف نرى الشيطان لا يسمح للناس بالتنبّه والالتفات، فهم يتذكّرون ربّهم عند سماعهم موعظة واحدة، ولكن ما إن ينقضي عنهم وقت ليس بالكثير حتى تراهم ينحرفون عن جادة الحقّ، ويعودون بأمسّ الحاجة إلى موعظة أخرى تعيدهم إلى الصواب.

إنّ غواية إبليس لا تختصّ بذنوب الإنسان الظاهريّة فحسب، لأنّ لمؤامراته ومكائده فيما يخصّ الذنوب الخفية والباطنية فاعلية أكبر، لذلك تراه يحرص أكثر ما يحرص على إفساد وتخريب باطن الإنسان وجوهره.

روي عن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال لعبد الله بن جندب في معرض تحذيره له من الشيطان:

يا عبد الله؛ لقد نصب إبليس حبائله في دار الغرور، فما يقصد فيها إلاّ أولياءنا.[90]

إنّ من المفترض بمن تلقّى بعض العلم، وكان يتمتّع بذهنيّة وقّادة أن يحذر من مرض العجب والغرور، وأن يدرك أنّ ذهنيّة هذه إنّما هي نعمة ربانيّة قد منحت له من الله تعالى بلا مقابل. وبهذه الذهنيّة التي وهبها الله إيّاه استطاع أن يكون محطّ حاجة الناس، ولكنه بدلاً من أن يلبّي للناس حاجاتهم العلمية والثقافية، تراه ممتلئاً غروراً وعجباً، وهذا من حبائل الشيطان.

إن الشيطان لا يصارح الإنسان بهدفه ونيّته، وإنّما يتسلّل إليه شيئاً فشيئاً، فليقّنه الغرور كلمة كلمة، ويغذّيه بالعجب لقمةً لقمة، وما يحول دون الإصابة بهذه الجراثيم القاتلة هو العلم بأن حقوق الله لا يمكن للإنسان تأديتها على الوجه المطلوب، وأنّ أعماله غير لائقة في محضر الله وساحته القدسية، وأنّ من المفترض به أن يسعى إلى اجتناب المحارم، وإذا ارتكب ذنباً عليه أن يفرّ من ارتكابه ثانية ويتّجه إلى ربّه وحاميه. وإذا عصى الله وارتكب موبقة – ولو – أربعين مرّة، فما هو المبرّر والداعي لأن يصرّ على الموبقات ويعود لارتكابها ثانية؟! وكذلك لو عصى ألف مرّة، فعليه أن يهجر الذنوب ويحذر من ارتكاب المعصية الأولى بعد الألف!

تستحبّ «الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم» بعد تكبيرة الإحرام في الصلاة وقبل بسملة سورة (الحمد) المباركة. وينبغي أن تقال بكلّ إصرار وعزم؛ ليكون المصلّي في مأمنٍ من الشيطان وإلقاءاته.

لقد كان بمستطاع الله عزّ وجل أن لا يخلق الشيطان؛

(لَوْ يَشَاء اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) [91]

ولكنّه خلقه ليمتحن الناس ويفتنهم، ليُعلم مدى تمسّكهم بأوامر الله تعالى وابتعادهم عن نواهيه.

إنّ الله وهب الإنسان العقل، وغرس فيه الشهوة، وخلق الشيطان يوسوس له، ومنح الإنسان أيضاً الإرادة، ليكتشف ذاته ويرى ماذا يعمل ويختار!

فكما أنّ السوق يعتبر ساحة للتنافس بين التجّار، وكما أنّ من لا يرغب في المنافسة، فليس له دخول مضمار السوق، كذلك هي ساحة الدنيا ومضمار الكدح إلى الله تعالى، فكيف يصحّ تصوّر إنسانٍ في الحياة الدنيا، وهو يرفض الالتزام بقوانين المضمار أو يتجاهل حقيقة الهدف؟

إنّ الإنسان المؤمن يمتاز حتى في الأمور المادية بالسعي للحصول على الثواب من عند الله تعالى؛ بسبب نيّته، على الضدّ من الإنسان غير العارف بربّه، إذ لا شكران لسعيه مهما بنى وشيّد وجمع وفرّق.

إنّ المدرسة والمسجد والحسينيّة وغيرها من مصاديق الخير مضامير السباق إلى كسب رضا الله تعالى واكتساب الفضل والنعم الإلهيّة الكبرى، ومن يتقدّم على منافسه هو الذي يجاهد الشيطان فعلاً، ويجاهد بما أوتي من إمكانات.

صحيح أنّ الناس لا قدرة لهم على أداء حقّ الله تعالى في العبادة، إلا أنّ الله تعالى قد جعل لهم من الخصائص والفرص ما تقرّبهم إليه زلفى، ومنها: أنّه تبارك اسمه قد شرع للمسلمين صوم شهر رمضان ومنحهم فرصة شهر رمضان؛ ليعبّدوا به طريق الوصول إلى الجنة. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة». [92]

ففي كلّ نفس للإنسان ثواب، وفي كلّ نومة جزاء حسن.

[93]

وأكثر من ذلك: أنّ الله يحبس[93] الشيطان في هذا الشهر المبارك.

وهذه كلّها امتيازات وألطاف إلهية غير متناهية على الناس، يتوجّب عليهم الاستفادة القصوى منها.

روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قوله:

إنّ الله عزّ وجلّ اخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في الحسنات، فلا يستصغرنّ أحد منكم حسنة، لأنّه لا يدري فيم رضا الله تعالى. وأخفى سخطه في السيئات، فلا يستصغرنّ أحدكم سيّئة، فإنّه لا يدري فيم سخط الله...[94].

فلا يستصغرنّ المرءِ أيّة عبادة، مثل الاستغفار قبل الشروع بالدرس، أو قراءة صغار السور القرآنية قبيل النوم.

ومن ناحية أخرى، لا يجدر بالفرد العاقل استصغار أيّ نوع من المعاصي، وإنّما المفترض المحافظة على النفس في مواجهة الشيطان ومنعه دون اقتحامه القلب واحتلاله.

عبادة عابد بني اسرائيل

ورد في الروايات:

«أنّ رجلاً في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة، ثم قرّب قرباناً، فلم يُقبل منه، فقال لنفسه: ما أُتيت إلاّ منكِ، وما الذنب إلا لكِ. قال فأوحى[95] الله تبارك وتعالى إليه: ذمّك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة»[96].

ولم تكن عبادته بمعنى أنّه كان يصلّي إحدى وخمسين ركعة في اليوم، أو يصوم شهر رمضان في كلّ عام، وإنّما كان يطلق على العابد عابداً إذا صام نهاره وقام ليله، وقد يكون من السهل قول ذلك، ولكن أن يقوم رجل بهذا النوع من العبادة لمدّة أربعين سنة، فإنّنا لا نجد نظيراً له إلا بما لا يتعدّى رقمه رقم عدد أصابع اليد من بين الملايين من بني إسرائيل.

ترى ماذا لو أراد المرءِ أن يعبد على هذه الطريقة دائماً؟ إنّه سيتعب ولعلّه يمرض يوماً أو لا يجد ما يقتات به إذا ما واصل العمل بهذا الأمر. فالمهمّة صعبة للغاية، وهذا العابد زاول عبادته

وقضى أيّامه المديدة بهذا الشكل من العبادة بمعناها الواقعي. وذات يوم قرّب قرباناً، وكانت الأمم السابقة تعرف قبول قرابينها بعلامات خاصّة بها، مثل أن تنزل ناراً فتحرق القربان، ولكن قربان هذا العابد لم يقع موقع القبول، أي أنّه رُفض بعد أربعين سنة من العبادة، وبعد أن علم العابد عدم تقبّل قربانه، عاد باللوم على نفسه وقال في نفسه: لابدّ من عيب في عبادتي، أو أنّها كانت غير خالصة، لأنّ الله تعالى لا يرفض أحداً أو طلب أحدٍ دون دليل وحكمة، فأعلمه الله تعالى له أنّ قيمة ملامته ومؤاخذته لنفسه أكبر من قيمة عبادته طيلة تلك السنوات.

فإذا كانت عبادة هذا العابد على امتداد أربعين سنة على هذا الشكل، فما أحرج موقع عوامّ الناس الذين لا يعرفون بم يفترون، ولأيّ سبب يتكبّرون؟!

لقد كان هذا العابد محظوظاً حين علم بعد أربعين سنة من العبادة أنّ أعماله غير ذات فائدة، ولكن ماذا يحلّ بالإنسان إذا جهل واقعه وواجهته الآخرة وهو لا يملك الفرصة في جبران مافاته؟

إنّ الأئمة المعصومين سلام الله عليهم حدّثوا أتباعهم بحكاية هذا العابد ليفتحوا عيونهم وآذانهم لدرك الحقائق الإلهيّة والمثوبة الخاصّة بالإنسان.

عبادة أمير المؤمنين

دخل الإمام الباقر عليه السلام على أبيه الإمام السجّاد سلام الله عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفرّ لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخزم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، فقال عليه السلام:

فلم أملك – حين رأيته بتلك الحال – البكاء، فبكيت رحمة له، فإذا هو يفكر فالتفت إليّ بعد هنيئة من دخولي، فقال: يا بنيّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام. فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً، ثم تركها من يده تضجّراً وقال:

من يقوى على عبادة عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه [97].

إنّ جميع أعمال الإنسان العبادية قاصرة في محضر الربّ الجليل. وإذا رسخت هذه القاعدة في الأذهان، فلا شك أنّ الذنوب ستتضاءل، هذا فضلاً عن أهميّة إدراك أنّ ما يقوم الأشخاص به من الأعمال، والموفقيّة التي تدفعهم إلى ذلك إنّما هي موفقيّة ربانيّة تقف وراءها الرحمة والنعمة

والفضل الإلهي، فالدراسة والعبادة والذهنيّة الصالحة والسعي الدؤوب، إنّما هي توفيقات إلهيّة مباركة، ولولاها لاستحالت فرصة إنجاز أيّ عمل صالح.

نعم الله لا تُحصى

«إنْ تعُدّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصوها» [98] .

إنّ نعم الله تعالى على الوجود عموماً والإنسان خصوصاً من الكثرة بحيث يعجز العادّون عن حصرها، كما يعجز الإنسان عن إبداء الشكر لله تجاهها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«... وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد»

إنّ أكبر نعمة تفضل الله بها على المؤمنين هي نعمة الإيمان بالربّ الواحد الخالق المتفضّل العادل، ما يحتّم عليهم إبداء الشكر على أنّهم ليسوا من الكفّار. أما أولئك الذين عكفوا على عبادة غير الله طيلة أعمارهم فسيصابون بالحسرة العظمى في يوم القيامة، كما سيرى المؤمنون آنذاك عظمة نعمة الإيمان التي تفضّل الله بها عليهم.

فالإيمان نعمة كبرى، ولتحقّقها شروط كثيرة، مثل: الزمان المناسب، أو كون الأبوين مؤمنين، والمكان المناسب، فيتكوّن من هذه الشروط وغيرها مزيج رائع ينتج عنه انخراط الفرد في سلك الإيمان.

نعمة التوبة

قلنا: إنّ الإنسان أساساً يفتقر إلى القدرة على شكر النعم الإلهية. والأمر الوحيد الذي يستطيع إنجازه، هو السير على طريق التوبة والاستغفار «أمسوا وأصبحوا تائبين».

نعم؛ إنّ للتوبة أن تجبر النقائص والعيوب البشرية، وتغطّي أخطاء الإنسان.

لقد ورد في الأثر الموثّق:

أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهنّ إلا هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته. وإن هو عملها، كتب الله له عشراً. ويهمّ بالسيئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء، وإن هو عملها أُجّل سبع ساعات... [99]

فإذا ما استلقى شخصان يريدان النوم، وكان في نيّة أحدهما أن يستيقظ في منتصف الليل ليتناول الخمر – والعياذ بالله – وكان في نيّة الثاني أن يقوم في الوقت ذاته لأداء صلاة الليل ولم يستيقظا، فإنّه سيكتب للثاني ثواب القيام بصلاة الليل، في حين لا يكتب للأوّل أيّ ذنب.

إنّ الذنب لا يدوّن في كتاب الإنسان حتى مرور سبع ساعات، حيث يعطى الفرصة الكافية، لعلّه يقوم بعمل صالح، فيمحى ما ارتكبه من السوء؛ قال الله سبحانه وتعالى:

(إنّ الحسناتِ يُذهبْن السيّئات) [100] .

نعمة الولاية

أتباع مدرسة أهل البيت سلام الله عليهم يعيشون اليوم في عصر الغيبة؛ غيبة الإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف، وإنّ واحدة من نعم الله تعالى على الشيعة هي الوجود المقدّس لمولانا صاحب العصر والزمان صلوات الله عليه، الأمر الذي يوجب عليهم إبداء مزيد من الشكر تجاهه، وإن من أبرز مصاديق الشكر هو إدخال السرور على قلب الإمام؛ وهو حجّة الله في أرضه.

ولعلّ أكبر ما يدخل السرور على قلبه سلام الله عليه هو القيام بالمسؤوليات الشرعية، أي ضرورة أن نعي هذه المسؤوليات وندرك عمقها ومدى تأثيرها والعمل بموجبها.

وبهذا الصدد يُنقل عن الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله تعالى أنّه كان يعمل كاسباً لمدّة ساعتين كلّ يوم من أيام دراسته للعلوم الدينيّة، وذلك لكي يجني بعض المال الذي يضمن لنفسه إمرار معاشه أثناء دراسته.

وذات يوم شوهد إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف جالساً مع الشيخ الأنصاري الذي كان منهمكاً في بيع أحد الأقفال، فقال الإمام سلام الله عليه في معرض ثنائه على طريقة تعامل

الشيخ أثناء البيع بشكل نابع من نفس مخلصة وسلوك ورع، قال لمن كان حاضراً: هكذا كونوا لأقدم بنفسي عليكم.[101]

إنّ الشيخ الأنصاري رحمه الله لم يكن معصوماً، ولا ابن إمام معصوم، بل لم يكن من الذريّة الطيّبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما قيل إن نسبه يعود إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه، فكيف بلغ هذه المرتبة السامية؟ لغد بلغها رحمه الله بسبب النهوض بمسؤولياته كإنسان مؤمن تابع لمدرسة آل البيت سلام الله عليهم؟

الموت يأتي بغتةً

«يا أبا ذر، إنّكم في ممرّ الليل والنهار في آجالٍ منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتةً، ومَنْ يزرع خيراً يوشك أنْ يحصد خيراً، ومن يزرع شرّاً يوشك أنْ يحصد ندامةً، ولكلّ زارع مثل ما زرع».

من الواضح هنا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا المقطع المبارك من وصيّته الشريفة يصوّر لأبي ذر رضي الله عنه الإنسان بكونه عبارة عن كائن موجود في ممرّ الليل والنهار، أي أنّه محكوم بحكومة الزمن، ومثل هذا التعبير لم يرد في الروايات والآيات والأشعار والأمثال إلا هنا وفي بعض أقوال أمير المؤمنين سلام الله عليه. فكان وصف الليل والنهار بكلمة (ممرّ) ابتكاراً نبويّاً رائعاً على الصعيد البلاغي.

وفي هذا التعبير البلاغي نقطتان مهمّتان على المستوى الأدبي والمعنوي.

فمن الناحية الأدبية، يمكن تصوّر كلمة (ممرّ) على اعتباره مكاناً، وكذلك يمكن تصوّره زماناً، أي أنّ محل حضور الإنسان مكان مرور الزمان، وهو في الوقت ذاته ظرف زمنيّ لطيّ لحظات الزمن.

أما الناحية المعنويّة؛ فهي أنّ الليل والنهار بمثابة السيل الذي يدفع ابن آدم ضمن تيّاره الهادر، وقد وضع المرء في هذا الحيّز وضعاً جبريّاً، وكذلك هو حال وجوده في هذا المعبر والممرّ.

آجال منقوصة

للأجل معنيان: فطول العمر ومدّة حياة الإنسان في هذه الدنيا تعتبر أجلاً. وكذلك نهاية العمر حيث ينقطع عن الحياة تسمّى (أجلاً)؛ وعليه فإنّ شأن تواجد ابن آدم في (ممرّ) الليل والنهار كشأن بعض الأشياء المحدودة التاريخ والصلاحيّة.

كما تستعمل كلمة (النقص) في اللغة العربية على ثلاث طرق؛ فهي تستعمل فعلاً لازماً، ومتعدّياً لمفعول واحد، ومتعدّياً لمفعولين.

و(النقصان) في هذا الحديث الشريف استعمل بمعنى اللازم والمتعدّي.

فهو من ناحية يرى أنّ عمر الإنسان – وفقاً لشرائط الخلقة – أمر محدود وزمنيّ، فكان نقصان الآجال لازماً محتوماً.

ومن الجانب الثاني، ثمّة يد وإرادة ملؤها القوّة والقدرة تتحكّم بطبيعة عمر الفرد وحدوده، قلّة وكثرة، وطبقاً لنوع حياة الفرد ذاته. فالنقصان فعل مباشر من جانب الله الحقّ تعالى، ومفعول نفس العمر.

إنّ يد الله القادرة المقتدرة تنقص في عمر الإنسان، وتغيّر مقداره، أيّ أنّ هذا العمر ناقص؛ وهناك منقِّص قادر مستولٍ عليه، تماماً كثروة التاجر التي تزداد حين يستثمرها بنجاح، وتنقص حين يتّخذ منها موقفاً دون ذلك، أو عمد إلى تجميدها وصرفها في أمور غير تجارية.

وكذلك شأن قابليات وإمكانات الإنسان، ففي يوم تكون قدرته على الإدراك في مستوىً سامٍ، وفي اليوم التالي يعتورها النقص والضعف.

ورغم أنّ انقضاء عمر الإنسان وزواله عادة ما يكون في غفلة منه، إلا أنّه يتقدّم في كلّ لحظة ويطوي مسيرته في سرعة بالغة، وبين هذا وذلك هناك مجموعة عوامل ومقدّمات توجب للعمر البركة والإزدياد، مثل صلة الرحم، أو العفو عند المقدرة، وغير ذلك مما تناولتها الأحاديث والروايات الشريفة.

أعمال محفوظة

يواصل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله حديثه الشريف ليؤكّد أنّ الإنسان يعبر من هذا الممرّ الزماني وجميع أعماله تحفظ وتسجّل في صفحة مصيره بشكل لا يفوت على حافظها شيء منها، ولا هو من أهل الغفلة فتغادره.

إنّ أعمال ابن آدم؛ الكبير منها والصغير، ورغم أنّه قد ينساها أو تمحى من ذاكرته، لكنّها لن تمحى من كتابه الخاصّ، لاسيّما وأنّها ستكون مادّة وموضوع محكمة العدل الإلهي الكبرى في يوم القيامة.

وتستمرّ حركة الحياة في جوهر الإنسان وبدنه، حتى تستولي عليه قبضة الموت الهائلة «الموت يأتي بغتةً»، فيُستدعى ابن آدم إلى ساحة المحكمة الموعودة بواسطة الموت، فيواجهه هناك بجميع أفعاله وأقواله وأفكاره بعد أن تجمع كلّها في ملفّ خاصّ يحمل اسمه هو دون غيره، أمّا قاضي هذه المحكمة فلا تأخذه سنةٌ ولا نوم، ولا غفلة عن أيّة قضيّة من القضايا، وهو الذي لا تخفى عليه خافيه.

أقول: إذا كان من المقرّر أن يحاسب شخص ما في الدنيا ويحاكم على أعماله ونواياه؛ فإنّه لاشك سيتعرّض لأزمة نتيجة الخوف والترقّب والاضطراب ويستولي ذلك على كلّ وجوده، حيث تقدح في زوايا مخيّلته صورة تلك المحاكمة، ولعلّه يفقد السيطرة على حواسّه، فهو يتوقّع حلول وقتها في كلّ لحظة، فإذا كان نائماً ثم استيقظ فكّر من فوره بالمحاكمة، بل إنّ مستوى قلقه المتزايد يسأله باستمرار عن موعد انعقادها المرتقب، ومتى يسوقه حرسها إلى ساحتها وبأيّة حالة سيساق، حتى يصل به الأمر إلى أنّه قد يفقد معه لذّة الطعام والنوم والاستراحة والتركيز الذهني، فتراه إذا ضحك، ضحك ضحكة ملؤها المرارة، وأصبحت أفراحه أفراحاً ظاهرية....

مثل هذه الحالات تستولي على من اضطرّ للمثول أمام محكمة دنيويّة، فكيف بمن سيرغم على الحضور في محكمة الآخرة، فهل ستظهر عليه ملامح الراحة والاستقرار النفسي؟ أوليس ما يبدو على الإنسان – الناقص العمر، المحفوظة أعماله – من السعادة والفرح إلا نتيجة غفلته وجهله ولا مبالاته؟! لاشك أنّ جميع الناس مصابون بداء الغفلة عن حقيقة ما يسيرون باتجاهه، ولا شك أيضاً أنّ درجات إصابتهم بهذا الداء متفاوتة.

ضحكة النبي الأخيرة

ذكرت الروايات الكريمة أنّ النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وفي ليلة المعراج حيث كان مع جبرائيل رأى جهنم وما فيها من العذاب، وبعد ذلك لم يُرَ ضاحكاً أبداً.[102]

ولكن هناك كثير من الناس يحشرون أنفسهم في مستنقعات الغفلة والجهل، فيظهرون بملامح الفرح والضحك، ولو أنّ الناس عرفوا أنّهم سيستدعون إلى محكمة الآخرة، لسُلب منهم الفرح، ولترقّبوا الموت في كلّ آن ومناسبة وحالة.

فتارة يفاجئ الموتُ الإنسان في منتصف الليل وهو نائم، وتارة يباغته وهو يتعبّد ساجداً، وأخرى ويداه منغمستان في المعصية، فأين هذا النوع من الموت، من النوع الآخر، حيث تقبض

روح الإنسان وهو غارق في التعبّد ليلة القدر يذكر ربّه ويردّد قوله: «بك يا الله»؟

إنّه ليس ثمّة إنسان يعلم متى وأين سيموت. «والموت يأتي بغتةً».

الآخرة وظاهرة النسيان

من القضايا الأخرى الخاصّة بيوم القيامة، هي أنّ ابن آدم وبداعي نسيانه، تراه لا يتذكّر كثيراً من أعماله الصالحة أو الطالحة، ولذلك فهو لا يتفهّم في بادئ الأمر العديد من موارد اتّهامه، ولكن للمحكمة الأخرويّة قاضٍ لا يضلّ ولا ينسى ولا يحيد عن الحقّ مقدار أنملة، إنّه سوف تحضر أمام الملك الحقّ ملفّات الصالحات والسيّئات التي نسيها الإنسان.

ولعلّ المرء قد غفل عن بعض الممارسات الدنيويّة ومُسحت من أمام عينيه، ولكنّها متكدّسة في ضميره، وبمجرّد إحضاره ووجوده في ساحة المحاكمة وانفصاله عن الجاذبيات المادّية والدنيويّة، سيلاحظ تلكم الأعمال والممارسات ماثلة في وجوده بحيث لن تكلّف المحكمة نفسها للضغط عليه من أجل كسب اعترافه بما اقترفت يداه، وإنّما سيكون مجرّد وقوفه في تلك الساحة إقراراً واعترافاً مطلقاً، حتى أنّك لا تسمع إذ ذاك إلا همساً.

إذا تمكّن الإنسان من تكريس هذه الحقائق في نفسه وتسجيلها في ضميره بصورة حيوية بحيث يفعّلها متى يريد وكيف يريد، فإنّه حينذاك سيكون هدفه الأكبر في الحياة إنجاز أعمال الخير وتسجيل الصالحات في ملفّ أعماله، وإذا نحّى المرء حجب الغفلة جانباً، واستثمر ذكاءه، ولم يتصوّر المستقبل (الموت والآخرة) حقيقة بعيدة بل رآه قريباً، فإنّه سيتأكّد من شديد حاجته للأعمال والنوايا الصالحة.«ومن يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً».

الاستعداد للموت

كان رجل ثريّ يعيش في مدينة كربلاء المقدّسة، وقد حدّث قريب له قال: مرض الرجل ذات يوم مرضاً شديداً، نُقل على أثره إلى المستشفى، فبقي فيها مدة، وكنّا نذهب إلى عيادته، فنصحه بعض منّا بضرورة أن يكتب وصيّته، لاسيّما وأنّه رجل غنيّ ولابدّ له من تخصيص جزء من أمواله لصرفها في سبل الخير والبرّ لتكون له ذخيرة طيّبة لآخرته، ولكنّه كان يرجئ ذلك إلى وقت آخر أو بعد شفائه وخروجه من المشفى، بينما كان المحيطون به يشجّعونه على كتابة الوصيّة مؤكّدين له قدرته على كتابة ما يريد، وإذا ما رغب في تعديلها أمكنه ذلك [103]، وبعد إصرار متواصل منهم تنازل واستعدّ أن يبدأ بكتابة الوصيّة، فجيء له بقلم وورقة، وكتب قسماً من وصيّته، ولكنه تراجع

بعد ذلك وترك الكتابة! مؤكّداً مع نفسه أنّه سيعاود كتابة الوصيّة بعد نيله الشفاء، ولكن الأجل لم يمهله، ولم يُرَ إلا ميّتاً في صباح اليوم التالي....

إنّ على المرء أن يكون مستعدّاً على الدوام لهذه المواجهة الحتميّة، ذلك لأنّ الاستعداد للموت له تأثير كبير جداً على سلوكه. فمن كان كذلك في حياته، كان سلوكه بصورة عامّة يتّسم بنوع من الحذر والاحتياط، ومثل هذا الإنسان لا يجرؤ أبداً على الخوض في المعاصي والرذائل الأخلاقيّة؛ ولذلك فهو حذر في كلّ لحظة من شطحات لسانه وبطش يده، وزيغ عينيه وطيش أذنيه، وانسياب أمواله في طريق الذمّ.

إنّ مراد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من قوله المبارك: «الموت يأتي بغتةً» توضيح قاعدة وقانون يستوعبان الناس جميعاً، وهو أنّ الموت أمر حتميّ ومباغت، وكون الجميع عاجزين عن مواجهته. ولا نجد إنساناً – مسلماً أو غير مسلم – له القدرة على مواجهة هذه الحقيقة والقانون الثابت، بل يستسلم له بصورة مطلقة، وبعدما تزاح عن قوة إدراكه حجب الجهل والغفلة، تستولي عليه الحسرة وتبدأ مسيرة الندم في انطلاقته باتجاه الآخرة، وعندها سيفهم ماذا فرّط طيلة حياته، وماذا حمل من أثقال لا نفع لها على ظهره، وكم أضاع من حسنات كان بامكانه جمعها، وهو إذ ذاك بمسيس الحاجة لها.

قيل في سبب أن بعض الناس يموت وعيناه مفتوحتان، بينما بعض يموت مغمض العينين: أنّ الموت لا يسمح لهذا أو لذاك بأن يغيّر وضعيّة عينيه أبداً.

وقد قيل إنّ شخصاً أصيب بالسكتة القلبية ومات وهو يؤدّي صلاة الفجر، فرآه أحد ذويه في منامه، فسأله عن طبيعة موته، فأجابه قائلاً: كنت منشغلاً بقراءة كلمة من إحدى الآيات، فتفوّهت بحرف من تلك الكلمة في الدنيا، وبحرفها الآخر في عالم ما بعد الدنيا.

نعم إنّ قانون مباغتة الموت لا يمهل ابن آدم حتى لمجرّد التفوّه بحرف واحد فقط، فلماذا التجاهل، ولماذا الغفلة، ونحن نعلم بمحدوديّة أعمارنا وتناقصها؟!

أسباب ضحالة الفكر

إنّ ما يعيق الإنسان دون استثمار عقله أو أن يفكّر في عاقبته أمران؛ الأوّل: الجهل. والثاني: الشيطان. فهذان العاملان غالباً ما يتسبّبان في ضحالة الفكر وعيب السلوك.

فالشيطان من ناحيته خبير بكيفيّة تحقيق أهدافه المشؤومة، دون أن تتضاءل رغبته في التسلّط على الإنسان والتحكّم به أبداً، ولكنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل له سلطاناً أو سبيلاً على ابن آدم يجبرانه على الخنوع له. كما أنّ إرادة الكائن البشريّ وعلمه كفيلان بأن يستطيع وفقهما مواجهة الوساوس الشيطانية والتحصّن دون أذاه ومؤامراته المتعدّدة الأشكال والألوان.

إنّ الله جل ثناؤه قد جعل في داخل الإنسان (مصباحاً) يضيء له الظلمات التي قد تحيط به، فيعرف ويتحسّس به طريقه القويم من الطرق الملتوية، وجعل مفتاح هذا المصباح بيد الإنسان دون سواه، وهو الذي ينبغي له أن يفعّل هذا المصباح بإرادته، فيستطيع أن يوقده أو يطفئه، وهذا المصباح هو (العقل) القادر على هداية الإنسان، ومن ثم يمكن القول بأن العقل هو جناح ابن آدم، بينما الشهوة جناح الشيطان.

لقد سئل أمير المؤمنين سلام الله عليه عن خير خلق الله بعد أئمّة الهدى ومصابيح الدجى، فقال صلوات الله عليه:

«العلماء إذا صلحوا».

قيل: ومن شرّ خلقٍ بعد إبليس وفرعون ونمرود وبعد المتسمّين بأسمائكم وبعد المتلقّبين بألقابكم والآخذين لأمكنتكم والمتأمّرين في ممالككم؟ قال:

العلماء إذا فسدوا، هُمُ المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق...» [104] .

لم يقل الإمام سلام الله عليه – وفق هذا النصّ الشريف – بأنّ أفضل الناس من يؤدّي صلاة الليل، أو يعطي الخمس من أمواله، وغير ذلك ممّن يقومون بالأعمال الصالحة، رغم فضلها وعظمتها، ولكنّه أكّد أنّ أفضل عباد الله تعالى هم العلماء إذا فعّلوا عقولهم وأطاعوا مولاهم وأصبحوا صالحين.

العالم الصالح والعالم الطالح

الحسين بن روح [105] والشلمغاني [106] هما من علماء الإسلام. وكانا يتمتّعان بمستوى من العلم الرفيع، إلا أنّ جوهر الصلاح نما في الحسين بن روح فقط، على عكس شخصيّة الشلمغاني الذي أخذ يبتعد تدريجياً عن الصلاح، رغم أنّه كان أكثر شهرة من ابن روح، كما كان الناس

يرجعون إليه في المسائل الشرعية، ولكننا نرى في نهاية المطاف أنّ الحسين بن روح أصبح النائب الخاصّ الثالث للإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

لقد كان هذان الشخصان وفي سنين مديدة متصدّين لحلّ مشاكل الناس ويفتونهم بمسائلهم الشرعية، ولكن كلّما مرّ الوقت كان الحسين بن روح يقترب من الخير والصلاح درجاتٍ، بينما الشلمغاني يبتعد عن الحقّ وتضيع عليه الحقائق وتلتبس، إلى أن بلغ الأمر أن خرج التوقيع الشريف من الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف يقضي بلعن الشلمغاني والتبرّؤ منه.

هنا لا ينبغي التصوّر بأنّ الحديث المتقدّم عن أمير المؤمنين سلام الله عليه قد ورد بحقّ المراجع وعلماء الطراز الأوّل فقط، بل هو حديث يشمل جميع الذين يكتسبون العلم، كلٌّ بمستواه؛ ما يعني أنّ على طلاب العلوم المختلفة – من جامعيين وحوزويين وغيرهم – أن يطبّقوا هذا الحديث الوارد عن أمير المؤمنين سلام الله عليه على أنفسهم ويجعلوا منه نبراساً وضياءً ملهماً لهم.

لا ننسى أنّ موضوع «العالم» أمر نسبيّ، أي أنّه مع وجود تفاوت كبير بين درجات العلماء، فإنّهم يجتمعون في تسميتهم علماء. فالطالب المبتدئ يجب عليه أن يحذر ويتّقي الابتعاد عن الصلاح والنزاهة، بنفس المقدار الذي يتوجّب على أكبر العلماء وأشهرهم. فالجميع ينبغي لهم أن يسعوا إلى الجمع بين العلم والصلاح، وبين التربية والتعليم في أنفسهم.

ولإنجاز هذه الفريضة لا تكفي مجرّد النيّة والقرار، وإنّما لابدّ من السعي المتواصل وبذل الجهود الحثيثة اللازمة في عمليّة التطبيق.

إنّ الدعاء بمنزلة التصميم، وهو من ضرورات إنجاح العمل، ولكنّه لا يكفي وحده، كما لا يصحّ الاكتفاء بالدعاء في تنفيذ أيّة مهمّة.

يتحتّم على الإنسان أن يخوض صراعاً مريراً مع الشيطان ومع نفسه الأمّارة وشهواته طيلة عمره.

إنّ الجميع يتمتّع بوجود المؤهّلات الذاتيّة لبلوغ منزلة الحسين بن روح، بل أعلى منها أيضاً، لاسيّما إنّ هذا النائب العظيم لم يتلقَّ أيّة ضمانة في عدم بلوغ شخص مّا درجة أسمى من درجته، ولكنّ مفتاح الوصول منوط بالإنسان ذاته.

ففي الحديث المتقدّم المرويّ عن الإمام، أمير المؤمنين سلام الله عليه تمّت الإشارة إلى أنّ شرّ الناس عند الله هم «العلماء إذا فسدوا»؛ ومن ثمّ فإنّ تحديد واقع العالِم ومصيره مرتهن به ومتعلّق بإرادته، فإذا سعى وجاهد ونجح في مهمّة الجمع بين العلم والصلاح، أصبح من أفضل

الناس، أمّا إذا فشل في جمع الصلاح والخير إلى علمه، وسقط في الصراع مع النفس الأمّارة بالسوء والشيطان، فإنّه لاشكّ سيصبح الكائن الأسوأ في المجتمع البشري برمّته.

وهاتان العبارتان – خير الناس، وشرّ الناس – دليلان واضحان على ما لإرادة الإنسان من دور أساسيّ مهمّ ومؤثّر في تحديد مصيره. ولابدّ من الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والتربويّة في صياغة الشخصيّة وتحديد نوعها، لأنّ لكلّ منهما تأثيره ودوره في تنمية الإنسان، ولكنّهما – مع ذلك – ليسا العاملين الأكبرين.

مثال ذلك: إنّ شهر رمضان المبارك فرصة رائعة من حيث الزمان لكي يستفيد منها الإنسان لتسهيل المهمّة القاضية بتربية نفسه وتهذيبها، مع ملاحظة ما ورد في الروايات المأثورة عن أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين والقائلة بأنّ الله عزّ وجلّ سيحبس الشياطين بالحديد [107] عن أن توسوس لبني آدم في هذا الشهر الفضيل، ولكن هل تكفي فرصة شهر رمضان في استغلال هذا الاستثناء الرائع لكي ينجز الإنسان مهمّته الكبرى، والتي من أجلها قد خُلق؟!

الشيطان في شهر رمضان

بين أيدي المسلمين خطبة شريفة متواترة عن النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله، جاء فيها أنّ الله تعالى يحبس الشياطين في شهر رمضان، ثمّ خاطب المسلمين قائلاً: «فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم» [108].

وبناءً على إشارات وتعابير كثير من العلماء، فإنّ الشياطين بمثابة أشياء تتحرّك باتجاه الإنسان بواسطة جاذبيّتها الذاتيّة وجاذبيّة النفس الأمّارة بالسوء لها، إلا أنّ مانعاً كبيراً يصدر من قبل الله تعالى في شهر رمضان المبارك يحول دون إتمام عملية التجاذب، ولهذا المانع قدرة أكبر من قوّة الجاذبة الشيطانيّة، ولكن تبقى جاذبة الشهوات والنفس الأمّارة بالسوء قادرة على الاقتراب من الشيطان في شهر رمضان، ولولا وجود جاذبيّة الشهوات والنفس الأمّارة، لما كان هناك من يقترف ذنباً طيلة هذا الشهر.

ولنا أن نفهم من خلال روايات أخرى، حقيقة الوسائل والأسباب التي تحطّم أغلال الشياطين، التي هي مظهر من مظاهر العناية الإلهيّة.

روي عن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال:

الفتن ثلاث: حبّ النساء، وهو سيف الشيطان. وشرب الخمر، وهو فخّ الشيطان. وحبّ الدينار والدرهم، وهو سهم الشيطان [109].

كما أنّ لبعض أصحاب المعصومين سلام الله عليهم تفاسير وتحاليل وآراء في روايات المعصومين بصورة عامّة.

ومثال ذلك: أنّ علي بن إبراهيم القمّي رضوان الله عليه [110] وهو من أصحاب الإمام الرضا والجواد سلام الله عليهما، ولعلّ له صحبة للإمام الهادي سلام الله عليه، وكذلك يعتبر أستاذاً للعالم المحدّث الشيخ الكليني [111]، أورد أن من جملة الأسباب التي تفكّ القيود عن الشيطان وتمنحه القدرة على النفوذ مرّة أخرى. الرياء والعجب وعدم إخراج الخمس والزكاة، فما يستفاد من مجموع هذه الروايات أنّ شهر رمضان المبارك هو شهر خاصّ واستثنائيّ.

ولعل سائلاً يسأل قائلاً: اذا كان هذا فعل الشيطان، فلماذا أنظره الله تعالى وأطلقه ثم يحبسه في شهر رمضان؟

وفي معرض الإجابة نقول: إن الله عزّ وجلّ قد أطلق الشيطان ليبتلي به الإنسان ويمتحنه، ولكن الإنسان قد عفي عن هذا الابتلاء والامتحان في شهر رمضان المبارك خاصّة، فهو يتلقّى البركات بلا جهد بذله أو عمل قدّمه.

قصة حبال الشيطان

قيل إنّ شخصاً جاء إلى الشيخ الأنصاري وقال: لقد رأيت الشيطان في عالم الرؤيا وكان معه مزيد من الحبال والسلاسل بأحجام مختلفة، فسألته عنها، فقال: إنّها وسائل عملي حيث أجذب الناس بها وأجرّهم إليّ، فبعض منهم بالحبال أسحبهم، وآخرون بما دقّ منها، ومنهم بالسلاسل الغليظة، أيّ أنه يستخدم وسائله بما يناسب كل إنسان حسب مستوى إيمانه ومقاومته.

قال: ثم رأيت سلسلة محطّمة متناثرة قطعاً صغيرة، فسألته عنها؟ فقال: لقد ألقيت هذه السلسلة الكبيرة على عنق الشيخ الأنصاري [112] لأقيّده بها، ولكنه قاوم حتى تحطّمت وتناثرت.

ثمّ إنّ هذا الرجل صاحب الرؤيا قال: فسألت الشيطان في المنام نفسه عن أيّ الحبال قد خصصّها لجذبي نحوه، فأجابه الشيطان بأنّك لا تحتاج إلى واحد منها، لأنّك تستجيب لي بإشارة

بسيطة منّي!!

أقول: إنّ أمام الإنسان فرصة مواجهة النفس الأمارة بالسوء والشيطان – ما دام على قيد الحياة – ليحفظ نفسه ويصونها دون الاضطرار إلى الانحراف، حيث لا يجد لنفسه فرصة الندم عند الموت، ولات حين مناص.

الهلع من الذنب

قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا أبا ذر، إنّ المؤمن ليرى ذنبه كأنّه تحت صخرة؛ يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرى ذنبه كأنّه ذباب مرّ على أنفه»...

يكمن الفرق بين المؤمن والكافر في موقف كلّ منهما إزاء الذنب والخطيئة، فالكافر لا يولي أهميّة تذكر لذنوبه، ولا يتحسّس أو يخاف ممّا تقترفه يداه. ولكن المؤمن يتوجّس خيفة من ذنبه حتى وإن مرّ زمن على اقترافه إيّاه، فتراه يتوقّع عواقب ذنبه الظاهرية أو الباطنيّة، ويعيش اضطراباً وقلقاً نفسيّين لا يستبعد معهما تلقّى الإجابة والردّ التكويني على الذنب مطلقاً.

ثمّ إنّ إيمان الفرد كلّما ارتقى مرتبة، تضاعف هلعه من الذنب مرتبة مثلها. فلو تصوّرنا شخصاً رأى نفسه فجأة في وسط الصخور ويحتمل تساقط المزيد منها، تراه – ولو كان الاحتمال ضعيفاً – يعاني قلقاً يسلبه راحته وتركيزه.

فيا ترى لو وجد المرء نفسه في هذه الحالة، فهل سيكون بمقدوره النوم؟ وهل سيلتذّ بطعام؟

فاحتمال سقوط الصخور وإن كان ضعيفاً إلا أنّه سيسلبه الراحة والاستقرار، ويضطرّه إلى معاودة النظر والالتفات، حذراً من تساقط مزيد من الصخور على رأسه، رغم علمه المسبق بأن إعادة النظر لا تأثير له في تساقط الصخور أو عدمه، والنبيّ المصطفى صلّى الله عليه وآله قد ضرب مثلاً في هذا المقطع من وصيّته الشريفة لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه ليكون مقياساً يمتحِن به الإنسان مستوى قدرته على مدى اقترابه من جوهر الإيمان.

مجيء حرف (إنّ) في مطلع عبارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثم استخدام (اللام) لفعل (يرى) يفيدان تأكيد المعنى، رغم أنّ الجملة توصل معناها دون الحاجة ل (إن واللام)، ولكن النبي الأعظم ونظراً للأهميّة التي رآها لهذا المفهوم، فقد استفاد من أداة التأكيد مرّتين، ليُعلم الشبه الكبير بين المثال الذي تمّ طرحه وبين مفهوم هذا المقطع من الوصيّة.

وعليه؛ فإنّ الفرد المذنب لا يستطيع إيجاد تغيير ما في ذنبه الذي ارتكبه عن طريق الاضطراب. إلا أنّ هلع المؤمن أقرب إلى التوبة والصلاح من عدم مبالاة الكافر تجاه ذنبه. فكلّ فرد مدعوٌّ إلى الرجوع لنفسه ليرى هل خلّف ارتكاب الخطيئة في وجوده هلعاً واضطراباً؟ وهل هو نادم عمّا اقترفت يداه؟

الكافر والذنب

القسم الثاني من العبارة خاصّ بالحديث عن الكافر وموقفه من الخطيئة والذنب. وهنا ينبغي الالتفات إلى حقيقة أنّ الكافر بدوره يرتكب الذنب، ذلك لأنّ الكافر الواقعي يستقبح بعض الممارسات ولكنّه يرتكبها رغم أنّه يعتبرها خطيئة. ثمّ إنّ للكفر مراتبه كما للإيمان مراتبه، لاسيّما أنّ كثيراً من المسلمين وفي حالات معيّنة يُعَدُّون – بناءً على بعض الآيات والروايات الأخلاقيّة – كافرين، من حيث التكليف في دائرة الإسلام. بعبارة أخرى: لا يلزم أن نتصوّر الكافر شخصاً مشركاً منكراً لأصل الوحدانية، أو ملحداً منكراً لوجود الله تعالى. فالبارئ سبحانه وتعالى وصف في القرآن المجيد من يتجاهل فريضة الحجّ كافراً، وقال:

(ولله على الناس حِجُّ البيتِ مَنِ استطاع إليه سبيلاً ومَنْ كفَر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين) [113]

.

مع أنّه قد يكون متشهّداً الشهادتين ومقيماً للصلاة ومؤدّياً للخمس والزكاة، وجمع في نفسه بقيّة شرائط الإسلام.

وإذا أمعنّا النظر في النصّ النبويّ موضوع البحث، وجدنا أنّ عدم انتشار الخوف والاضطراب في ذات المرتكب للذنب يوجب إطلاق وصف الكافر عليه، لأنّ من توصّل إلى معرفة الله الواحد الأحد الفرد الصمد بشكل صحيح، واعتقد ذلك في عقله وقلبه، استطاع أن يغيّر موقفه من الذنب، كما أمكنه أن يستدعي به استيلاء الهلع على نفسه، وإن لم يحدث ذلك لشخص ما حين اقترافه للذنب، فعليه التأكد بأنّه لم يعرف الله بعد، وبالتالي فهو – في حقيقة أمره – مصداق للكافر.

إنّ بمستطاع الإنسان المؤمن أن يربّى نفسه بشكل لا يبقي فيه على الخوف من الخطيئة أو الهلع أو أيّ شيء من نتائجها في داخله حيّاً دائماً، كما له القدرة على أن يعيش أيّامه مجرّداً عن تحمّل مسؤولية ذنوبه، بعيداً عن أيّ تفكير وهلع في نتائج ما اقترفت يداه.

وهذه الحقيقة تشير بوضوح إلى أنّ للنفس البشرية – خلافاً للبدن – قابليات متضادّة ومتفاوتة، فهي ليست محدودة كقابليات الجسد، إذ مهما تكن عين الإنسان قويّة، تعجز عن قراءة سطر من الكتابة وضع على مبعدة منها – حسب المتعارف – كذلك فإنّ أقوى العيون لا يمكنها قراءة سطر واحد إذا وضع على مسافة سنتمتر واحد، وهذه المحدوديات وأمثالها توضّح طبيعة التفاوت الكبير بين جسم الإنسان وروحه، إذ لا محدودية لهذه الأخيرة كمحدودية الجسد؛ فهي غير مقيّدة بما يحيط بها بشكل كبير أو دائم.

إنّ قابليات الإنسان في القضايا النفسيّة والروحيّة، سواء على المستوى الإيجابي أو السلبي غير محدودة في بعض الأحيان، وسواء في أطر السعادة أو أطر الشقاء، فهي تمتاز بحريّة حركة أكبر ومساحة أوسع، للانطلاق نحو الرشد والتكامل أو السقوط والانحطاط.

فجميع الناس قادرون على تحطيم قيود الكفر، والابتعاد عن الجهل، والوصول إلى معرفة الله بالصورة الممكنة، كما أراد الله تعالى، وهذه القدرة على الانطلاق نحو الخير هي التي تبعث في وجودهم الهلع والاضطراب من ذنوبهم التي يقترفونها، وكذلك هم قادرون – بما لنفوسهم من حريّة حركة – على أن يبتعدوا عن الله ربّهم ويختطّوا لأنفسهم مسيرة الإجرام وإراقة الدماء وقتل أولياء الله تعالى، دون أن تهتزّ لذلك ضمائرهم وترتجف له قلوبهم.

وقد ورد في بعض الروايات أن تحسّس الإنسان المؤمن تجاه الذنب قد يبلغ حدّاً في بعض الأحيان بحيث يشعر بوخز الضمير وتفاقم الألم والندم، وإن مرّ عليه عشرون عاماً، فتراه يختار التوبة إلى الله تعالى، وآنذاك يتفضّل عليه ربّه بالمغفرة والعفو، بل لعلّه يبدّل سيّئاته حسنات ويكتب له رضواناً وجنّة أبديّين.

قصة المرأة العفيفة والشاب الفاسق

روي عن الإمام السجاد سلام الله عليه حكاية جديرة بالتأمّل نلخّصها على النحو التالي:

سافر عدّة من الناس على متن سفينة، وفجأة هبّت عليهم عاصفة أغرقت سفينتهم وجميع من كان عليها، إلا امرأة شابة استطاعت النجاة على جذع كان طافياً، فالتجأت إلى جزيرة كبيرة مكتظّة بالسكان.

وكان في هذه الجزيرة شاب ماجن، التقته المرأة الشابة على نحو الصدفة، وما إن رآها حتى تحركت شهوته تجاهها – إذ كانت جميلة جداً – فسألها عمّا إذا كانت من الإنس أو الجن!

فأجابته وهي تعاني الإرهاق الشديد لما تعرّضت له ولما رأت من غرق الذين كانوا معها في السفينة، بأنّها من الإنس.

فاقترب منها الشاب بقصد الخطيئة، فتفاجأ برؤية المرأة ترتجف بشدة ويهتزّ بدنها، فسألها عن سبب ذلك، فقالت له بأنّها خائفة، فقال لها: وممن تخافين وليس من أحدٍ معنا؟!

فأشارت بيدها إلى السماء وقالت: أخاف الله تعالى...

وهنا أحسّ الشاب بانقلاب في نفسه حيث ترك جواب المرأة أثراً بالغاً فيه، ولم يشعر إلا وهو يهمّ بترك هذه المرأة العجيبة، ولكنّه التفت نحوها قائلاً: إنّك تشعرين بكل هذا الخوف ولم ترتكبي ذنباً، فالويل لي أنا المذنب وقد أردت حملك على ارتكاب الخطيئة!

لقد انقدحت في نفس هذا الشاب شرارة المعرفة، وهو الذي كان حتى الأمس رجلاً فاسقاً لا مبالياً، فقرّر التوبة الى الله تعالى...

وفي طريق عودته التقى راهباً من الرهبان، فاتفق لهما أن سارا معاً، وحيث كان الراهب منزعجاً من شدّة الحرّ، فقد قال للشاب: تعالَ لندعوا الله تعالى ليرسل الله لنا غمامة نستظل بفيئها ونواصل مسيرنا.

ولكنّ الشاب الذي كان يشعر بشديد الخجل من سلوكه مع تلك المرأة، أجاب الراهب قائلاً: لا أشعر بالطهارة في نفسي كي يكون دعائي ذا فائدة، وإنّني لأخجل من سيرتي السابقة حتى أقف بين يدي الله.

فقال له الراهب: إذن سأدعو أنا، وما عليك إلا أن تؤمّن على دعائي.

وفعلاً؛ توجّه الراهب بالدعاء طالباً من الله تعالى أن يرسل عليهما غيمة تظلهما ليتخلّصها بها من أشعة الشمس الحارقة. فأمّن الشاب على دعائه. ولم يمضِ عليهما كثير وقت حتى رأيا غيمة تسير فوق رأسهما وتظللهما إلى أن بلغا مفترقاً للطرق، فانفصلا عن بعضهما، كلاً باتجاه مقصده، ولكن المفاجئ في الأمر أنّ الغيمة تبعت الشاب بينما بقي الراهب بلا ظلال!!

فأدرك الراهب أنّ الله تعالى قد استجاب لتأمين الشاب فحسب، دون دعائه، فاقترب منه وسأله عمّن يكون لينعم عليه الله بهذه المنزلة السامية، فقصّ عليه الشاب حكايته، فقال له الراهب: إنّ الله أنعم عليك بهذه المرتبة الرفيعة لما قدّمت بين يديه توبتك وأظهرت خوفك من المعصية.[114]

بلى! إنّ الله تبارك وتعالى يمنّ على عباده ويرحمهم حيث يهدمون وراءهم جسور المعصية ويتوجّهون إليه بقلوب خاشعة، ونفوس هاربة إليه ممّا يسخطه، فيتوب عليهم إذ يقرّرون في ثوانٍ معدودة التوبة عن سنين الخطايا والموبقات، وإذ ذاك يفتح لهم رحاب الرحمة وآفاق المعرفة والتكامل.

قصة أخرى

قيل: إنّ شخصين ذهبا إلى مجلس مّا، وما إن استقرّ بهما المقام حتى قام أحدهما وغادر المكان، فظنّ صاحبه أن أمراً ما قد ألمّ به أو عارضاً قد أصابه. وبعد ما رآه مرّة أخرى سأله عن سبب تركه للمجلس، فأجابه قائلاً: لقد كان لي مع أحد الذين كانوا حاضرين في المجلس مشكلة، فظننت أنّ حضوري في المجلس سيسبّب إحراجاً لي، فرجّحت مغادرة المكان.

يتّضح من ذلك أنّ احتمال ذهاب ماء وجهه دعاه إلى مغادرة المجلس، ولعلّ ذلك لا يحدث أبداً، بل ولعلّ ذلك الشخص الآخر قد نسي أو غفل عن أصل المشكلة، ولكن هذا الاحتمال على ضعفه دفعه إلى المغادرة، والآن لننظر إلى أيّ مدى تحظى الرغبة بحفظ ماء الوجه لدى الوقوف أمام الله تعالى بالأهمية عندنا.

كنوز ثمينة

تعتبر الآيات القرآنية والنصوص الدينيّة، بما فيها الأحاديث النبويّة وسائر روايات المعصومين صلوات الله عليهم كنوزاً ثمينة ورأسمالاً لا يضاهى لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة، حيث يمكن لابن آدم استثمارها في تعبيد طريقه نحو النجاح والفلاح في كلا الدارين، ولو أعاد النظر بالموقف من هذه الكنوز وعادلها بمال الدنيا من ذهب وفضّة لتبيّنت حقيقة تفاهة هذا المتاع القليل إزاء كلمات الله تعالى وكلمات المعصومين سلام الله عليهم، تلك الكنوز المفعمة بالحكمة والنور والفوز العظيم.

إنّ هذه الكلمات تناسب وتأخذ بيد الإنسان نحو الصلاح والفلاح دائماً وأبداً، فهل يمكن قياسها مع أموال الدنيا الماديّة والظاهريّة على ما هي من متاع قليل؟

إنّ للإنسان بعدين وجوديين، روحانيّ وجسمانيّ، ولكلّ واحد من هذين البعدين آفاته وأمراضه، وهي قابلة للعلاج إذا ما تمّت الاستفادة من تلكم الكنوز، فإذا ما تمّ الالتفات بدقّة إلى

تلكم الكلمات النورانية الحكيمة، أمكن استيحاء واستلهام النصائح والإرشادات والتعاليم الفذّة والدروس القيّمة التي يستطيع ابن آدم من خلالها إعمار دنياه وآخرته. إنّ القرآن وأحاديث أهل البيت سلام الله عليهم: هما الطبيب البارع والعلاج الناجع لأمراض وآفات الإنسان جميعها.

ابن أبي الحديد ونهج البلاغة

لأمير المؤمنين سلام الله عليه خطبة مهمّة [115] – وكلّ خطبه وكلماته سلام الله عليه كذلك – جديرة بالمطالعة والتدبّر، باعتبار احتسابها أفضل عبرة للناس. وقد أورد الشريف الرضي [116] هذه الخطبة العظيمة في (نهج البلاغة) فيما أولاها ابن أبي الحديد [117] مزيداً من الاهتمام في (شرح نهج البلاغة) خاصّة، وقد قال في معرض تبيينه لشيءٍ من عظمة هذه الخطبة: وأقسم بمن تُقسم الأمم كلّها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرّة ما قرأتها قط إلاّ وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة وأثّرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة. [118]

وقبل التمعّن في كلام ابن أبي الحديد، لابدّ من إلقاء نظرة على شخصيّته العلمية ليتمّ إدراك أهميّة كلامه في هذا الباب.

يعتبر ابن أبي الحديد من شيوخ وأساتذة والد العلامة الحلّي رضوان الله تعالى عليهما. وقد قام بشرح (نهج البلاغة)، ومن ناحية أخرى؛ فإنّه فضلاً عن شرحه، فقد أتى على ذكر الكثير من أقوال أمير المؤمنين سلام الله عليه التي لم يدوّنها الشريف الرضي رحمه الله في (نهج البلاغة) ذلك لأنّ ما جاء في هذا الكتاب الشريف لا يحوي جميع كلام الإمام علي سلام الله عليه، وإنّما تضمن مختارات من خطبه وكلماته.

والآن نجد هذا المحقّق المفكّر الذي قضى عمره في تحصيل العلم، وسمع الكثير الكثير من الأحاديث والروايات، وبلغ منزلة مرموقة في فهم واستيعاب كلمات وأقوال أمير المؤمنين سلام الله عليه، نجده يؤكّد بأنّه يواجه نصّاً جديداً رغم قراءته لنصّ الخطبة العلويّة المذكورة لأكثر من ألف مرّة، وهي الخطبة الخاصّة بقضايا الآخرة والموت، كما نراه يؤكّد بأنّه كلّما قرأها، رآها تترك فيه من الأثر مالم تتركه عليه المرّة السابقة لها، مع أنه قد طالع الأشعار والنصوص الأدبيّة الكثيرة الخاصّة بشأن الموت والآخرة.

ثمّ يعود ابن أبي الحديد ليسأل نفسه عن السبب الحقيقي لهذا التأثير العجيب.

ويجيب هو قبل غيره على هذا السؤال قائلاً: وكم وقفت على ما قالوه، وتكرر وقوفي عليه، فلم أجد لشيءٍ منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي، فأمّا إن يكون ذلك لعقيدتي في قائله أو كانت نيّة القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم، وسريان موعظته في القلوب أبلغ.[119]

في بداية الخطبة، تلا مولانا أمير المؤمنين سلام الله عليه آيات من سورة التكاثر المباركة، فقرأ:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)[120].

ثمّ قال سلام الله عليه:

«يا له مراماً ما أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أي مُدّكر، وتناوشوهم من مكان بعيد، أفبمصارع آبائهم يفخرون...؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون...؟ ولأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً»[121].

وقال سلام الله عليه في فصل آخر من هذه الخطبة:

«الذين كانت لهم مقاوم العزّ، وحَلَباتُ الفخرِ، ملوكاً وسُوقاً، سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً...»

الاعتبار بالمقابر

حقاً إنّ بمستطاع الإنسان أن يستلهم العبر الكثيرة من رؤية المقابر، وحيث يطّلع – مع ذلك – على معارف كالمعارف التي تضمنتها خطبة مولى المتّقين وسيّد الزاهدين سلام الله عليه المشار إليها، فإنّه سيقضي على غروره وتكبّره إلى حدّ كبير، وسيصبّ عظيم اهتمامه على أمر الآخرة.

ومن ناحية أخرى؛ يؤكّد الإمام علي سلام الله عليه أنّه على افتراض كون التفاخر بالأموات أمراً حسناً، فإنّ استلهام العبرة من مصائرهم أمر أحسن وأشدّ إلحاحاً. فبدلاً من الاغترار بماضي الآباء والأجداد تفاخراً يراد منه التكبّر، علينا أن نأخذ من واقعهم الذي هم عليه الآن الدرس والعبرة.

وبهذه العبرة والاعتبار سيكون من الصعب على الإنسان أن يغضّ النظر عمّا قد يرتكبه من الذنوب، وما قد يترتّب عليه من النتائج، لأنّه ستعتوره حالة من الهلع والاضطراب، وسيخاف أبداً من أن لا يغفر الله له، بل سيكون الذنب بمثابة حجر كبير يجثم على صدره، فينتهي به إلى الاختناق فالهلاك!!

دعاء الشيخ عباس التربتي

كان المرحوم الشيخ عباس القمّي [122] والمرحوم الشيخ عباس التربتي [123] – والد المرحوم الراشد الواعظ [124] – إنسانين عظيمين ونادرين، كما كانا من عظماء خطباء المنبر والموعظة، وكانا يتركان الأثر الطيّب في من يستمع إلى خطبهما.

ذات يوم ارتقى المرحوم الشيخ عباس القمي منبر مسجد گوهر شاد [125]، وكان الناس يصغون إليه، فإذا بالشيخ عباس التربتي يدخل المسجد، فقطع الشيخ القمّي خطابه؛ إكراماً وإجلالاً للشيخ التربتي، قائلاً: لقد حضر الفيض، وها أنا ذا أنزل من المنبر لكي نستفيد جميعاً من الشيخ التربتي.

فأجابه الشيخ التربتي قائلاً: ولكنّني جئت لمجلسك لأستفيد منك. ولكن إصرار القمّي حمل الشيخ التربتي على ارتقاء المنبر. فجلس على مرقاته الأولى واستقبل الناس الجالسين قائلاً: لقد استمعتم الى مواعظ الشيخ القمّي، ولست على استعداد لأضيّع أوقاتكم، ثمّ نظر إلى الحاضرين وقال:

أيّها الشيوخ والكبار، يا من هم بعمري، لعلّكم على علم بكثير من القضايا، وأنا لا أدري ما أقول، ثم استدعى الأطفال والصبية لكي يتقدّموا قرب المنبر.

وحينما اجتمعوا إليه وجلسوا عند المنبر قال: لا شأن لي مع كبار السن، وحديثي منصبّ معكم أيّها الصغار الأبرياء، لقد قدمت إلى مدينة مشهد المقدّسة لأستفيد فيها، ولكن لم أصب فائدة بنزول الشيخ عباس القمّي، ولعلّني أستفيد منكم أيّها الصغار لأنّ لكم صحائف بيضاء لم يكتب فيها ذنب وخطيئة، ذلك لأنّ: «القلم رفع عن ثلاث: عن الصبيّ حتى يحتلم،...» [126] ولذلك فإنّني سأرفع يدي بالدعاء وعليكم أن تؤمّنوا على دعائي واطلبوا من الله تعالى أن يستجيب لنا ويقبل دعاءنا.

فرفع الشيخ التربتي يديه داعياً: إلهي، لسنا معصومين، ولكنّنا لا نرغب في ارتكاب ذنب، وليس في نيّتنا مخالفتك، غير أنّنا سقطنا في الذنوب، ولا نعلم أيّها سيكون محطّ غضبك، وأيّها ستَغفر وتَمحو... إلهي! إنّ هؤلاء الصبية لم يرتكبوا ذنوباً بعد، فاقبل دعاءهم وارحمنا.

فنادى الصبية جميعاً: إلهي آمين. حتى تغيّر جوّ المجلس واصطبغ بصبغة أخرى، وعمّت الجميع الفائدة.

حقاً إنّ خطاب هؤلاء العظماء يصدر عن قلوبهم، ولذلك كان تأثيرهم في القلوب مباشراً أيضاً.

كيف ينبغي أن يكون المؤمن؟

قال صلى الله عليه آله وسلم:

«يا أبا ذر، إنّ نفسَ المؤمنِ أشدُ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يُقذف به في شركه».

في هذا القسم من الوصيّة الشريفة، يشير النبي صلى الله عليه وآله – استمراراً للحديث السالف عن الهلع من الذنب، واستفادة من مثالٍ جميل – إلى حالة المؤمن أثناء ارتكاب الذنب، حيث يؤكّد عليه وآله الصلاة والسلام أنّ قلب المؤمن حين اقتراف الخطيئة يرتجف أكثر من ارتجاف قلب العصفور الرقيق حين وقوعه في فخّ الصياد.

إنّ كلمة (ارتكاض) تعتبر كلمة غريبة ونادرة الاستعمال بين الكلمات الأخرى. فهذه الكلمة لا وجود لها في نصوص الروايات إلا ما ندر.

والارتكاض: يعني الاضطراب. ولكن للاضطراب مراتب ودرجات.

وحيث إنّ الارتكاض يقف على قمّة مراتب الاضطراب، فإنّه لا يستعمل في أيّ نوع من الاضطراب كان.

ومثال ذلك: إذا ألقيت على رجل من الأعيان تهمة السباب والفحش في القول، فإنّه سينزعج لذلك ويضطرب. وفي هذه الحالة لا يعبّر عن انزعاجه واضطرابه بالارتكاض. ولكن هذا الشخص نفسه إن اتّهِم بتهمة الفسق والفجور، فإنّ الارتكاض في هذه الحالة سيصدق تماماً على انزعاجه واضطرابه؛ لأنّ اضطرابه سيكون في أعلى درجاته، وقد يضطرّ إلى الهجرة عن محلّ سكناه؛ ومن ثم فإنّ الاضطراب – حسب أقوال علماء اللغة والبلاغة – ذو معنى مشكّك، وله درجاته الخاصّة به.

العلاقة بين الارتكاض والارتكاب

ثمّة قضيّة لطيفة في هذا الحديث الشريف، وهي أنّ النبي المصطفى صلى الله عليه وآله اعتبر حصول الارتكاض في قلب المؤمن من مجرّد ارتكابه الخطأ كافياً، أيّ إنّ المؤمن الحقيقي – وفق المنظار النبويّ – هو من يهتزّ وجوده لارتكابه الخطأ، وليس بالضرورة أن يكون خطؤه ذنباً أو معصية، ويتّبع ذلك الاضطراب بأشدّ صورة.

نعم؛ إنّ النصّ النبويّ الشريف لم يستخدم كلمة (ذنب أومعصية)، وإنّما استفاد من كلمة (خطيئة) وهي تعني في بعض الأحيان الاضطرار إلى المعصية، أو ترك الأولى، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ وراء انتخاب المعصومين سلام الله عليهم لهذه الكلمة دون غيرها حكمة بالغة وبلاغة فائقة، وهم سلام الله عليهم لا يستعملون الكلمات المترادفة أو القريبة من بعضها في المعنى إلا ضمن انتخاب دقيق وعناية خاصّة. وهكذا فإنّ النبي صلى الله عليه وآله حينما لم يستعمل كلمة (معصية) ولجأ إلى استخدام كلمة (خطيئة) يعني بأنّه كان بصدد تبيين وتأكيد مراتب خاصّة في هذه المعاني المتقاربة.

إذن فاستفادته صلى الله عليه وآله من كلمة (ارتكاض) في هذه الجملة كان هادفاً، وهذه البلاغة النبويّة الحكيمة إنّما كانت من أجل توضيح أهميّة الموضوع ودرجته، ولذلك أدرج صلوات الله وسلامه عليه في حديثه كلمة نادرة الاستخدام، وإلا كان بمستطاعه أن يأتي مثلاً بعبارة (أشد اضطراباً) لانسياقها في نفس المعنى.

والقضية اللطيفة الأخرى – في هذا الحديث – اختياره صلّى الله عليه وآله للعصفور في وصف درجة الاضطراب، ولاشك أنّ الطير بل الحيوانات جميعاً بما فيها الإنسان أيضاً، يصابون بالاضطراب جميعاً حينما يسقطون في فخّ من الأفخاخ، ولكن يبدو أنّ شدّة اضطراب العصفور آنذاك أكثر وضوحاً، لاسيّما أنه في تلك الحالة المزرية سيمتنع عن شرب الماء والتقاط الحبّ، بل عن كامل حريّته، فتراه يرتطم ببدنه بهذا الجانب وذاك لعلّه يتخلّص من فخّه أو شراكه.

لا تستصغرن ذنبك

يتفاوت الناس في طبيعة اضطرابهم للذنوب، كما يتفاوتون فيما بينهم بكثير من الأمور.

فتارة يقال لأحدهم: لماذا أذنبت؟ فيجيب بأنّه لا يرتكب كبائر الذنوب وإنّما يكتفي بصغائرها مشيراً إلى أمله لأن يحاسبه الله عليها فقط!!

وهذا النوع من التفكير في المحاسبة المأمولة في استصغار الذنوب قد عبّرت عنها الروايات الكريمة بأنّها ذنوب لا تُغفر، لأنّ الاستصغار بحدّ ذاته يعدّ من كبائر الذنوب؛ قال الإمام الصادق سلام الله عليه:

«اتقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّها لا تُغفر» [127].

أي مع استصغارها والتهاون في الموقف منها.

الاضطراب لدى ارتكاب الذنب، من الإيمان

وفقاً لما تقدّم؛ إنّ الاضطراب لدى ارتكاب المعصية يعدّ الشرط الأوّل لوجود الإيمان في قلب الإنسان. أما من يقضي كلّ نهاره في ارتكاب الذنوب والمعاصي دون أن ترتجف له شعرة ثم ينام هادئ البال، فهو لاشكّ خارج عن دائرة الإيمان. بينما لو سمع هذا الشخص نفسه بأنّ من المقرّر اعتقاله أو اعتقال أحد أقاربه، فهل تراه ينام ليلته مطمئنّ البال؟ أم هل سيكون لنومه معنى؟ ولذلك فإنّ نومه الهنيء بعد ارتكابه للذنب يعني أنّه محروم من معرفة عظمة الله تعالى وخارج عن دائرة الإيمان.

إنّ على الإنسان أن يحيي في نفسه حالة الاضطراب حين ارتكابه الذنب، كما عليه أن يبذل قصارى جهده ليصل إلى درجة من الإيمان عبر التمرين والممارسة.

نعم، هكذا كان العظماء الصالحون الذين إنّما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإيمان بوسيلة المراقبة التدريجيّة للنفس.

إنّ قلب المؤمن يشبه إلى حدّ كبير جداً وعاء الماء الذي يصلح بعد حدوث شرخ أو كسر فيه، فهو في ظاهره سالم من العيوب، وقد يحافظ على جميع قطرات الماء المسكوب فيه من الانسياب، ولكنّه في الوقت ذاته لا يبقى وعاءً سالماً.

إنّ أثر ذلك الشرخ في الوعاء يشابه اللوعة والألم للذين يحرقان قلب المؤمن جرّاء ارتكاب الخطيئة. لهذا فإنّ الإيمان لن يترك للمؤمن الحقيقي شعوراً مريحاً حين ارتكاب الذنب، بل إنّه سيستعذب الخير والصلاح ويكره الخطيئة كرهاً حقيقيّاً.

إنّ على الإنسان أن يعي الحكمة الأساسيّة من وجوده في الحياة الدنيا، ثمّ يتصرّف وفق ما يمليه عليه وعيه لفلسفة خلقته، كما عليه أن يعرف بأنّه سيغادر الدنيا لا محالة ذات يوم، وسيدخل

عالماً ملؤه الهيبة وحاكميّة العدل.

فكلّ عام ينقضي، يغادر معه عدّة من الأشخاص الذين كانوا بين ظهرانينا، ونتحسّس نحن من جانبنا الفراغ الذي خلّفوه برحيلهم، وهذا كلّه لا يعدو أن يكون رسالة مباشرة لنا نحن الأحياء، ودليلاً على اقتراب يوم الهيبة والعدل.

وجميع الرسائل والإشارات والمواعظ الأخلاقيّة أمور منبّهة، ولكن المرجع في جميع ذلك هو مراقبة النفس ومحاسبتها المستمرّة، لئلا تنفلت من عقالها، ثمّ لا يستطيع صاحبها كبح جماحها أبداً.

ليلة القدر

طبقاً لإحدى الروايات الشريفة؛ فإنّ ليلة التاسع عشر من شهر رمضان تعتبر (ليلة التقدير) والليلة العشرين(ليلة القضاء) أما ليلة الثالث والعشرين فهي (ليلة الإبرام)، وهي كلّها ليالي القدر، ولكن مع تساويهن في هذا المجال إلا أنّ لكلّ واحدة منهنّ خصوصيّاتها التي تميّزها عن غيرها.

وحسب الروايات الكريمة بهذا الشأن؛ سمّيت الليلة التاسعة عشرة ب (ليلة التقدير) أيّ أنّها الليلة التي تحدّد فيها حدود حياة الإنسان من حيث الكميّة، فتعرف فيها هيكليّة حياته من ناحية السعادة والشقاء، والراحة والألم، والطاعة والمعصية، والغنى والفقر، والصحّة والمرض.

وحينما تنقضي هذه الليلة بطلوع الفجر تُعيّن هيكلية حياة الإنسان وتعلم، وبكلمة: يجري التقدير فيها.

وكذلك يعلم في ليلة التقدير هذه تقدير ابن آدم من حيث الأعمال التي سينجزها، أو المراتب والدرجات التي سيرتقيها. أي أنّه سيعلم من هذه الليلة من هو: «أشد ارتكاضاً من الخطيئة».

وبعد مرحلة (التقدير) تحلّ ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك، والتي فيها يثبّت لابن آدم ما علم وحتم وقُدّر في الليلة التاسعة عشرة. أي أنّ التقدير لمّا عُلم، حلّت مرحلة تفعيل هذا التقدير. تماماً كما يطالع القاضي ملفّ موضوع الدعوى ثمّ يرجع الحق إلى أحد الطرفين في الدعوى، إلاّ أنّه يوكل إصدار الحكم النهائي إلى وقت آخر، فإذا ما سئل القاضي عن مضمون الحكم الذي لم يصدر بعد، فإنّه قد ينبئ به، ولكن صدور الحكم بشكل قاطع قد أرجئ إلى حين آخر.

أما الليلة الثالثة والعشرون؛ فتسمى ليلة (الإبرام) والإبرام لغةً يعني شدّ خيوط الحبل بعد أن كانت منفصلة ومنفكّة، وهنا يعني تأكيد الحكم الحتمي الذي كان قد صدر من قبل، فالتقدير والتثبيت يكون الحكم فيهما غير قابل للنقض في هذه الليلة، رغم إبرام الأحكام الصادرة في هذه المرحلة الحتميّة يمكن أن تبدل وتغيّر بواسطة الإرادة الإلهيّة المطلقة، وذلك طبقاً لمضمون هذه الرواية الشريفة. بعبارة أخرى: إنّ الإبرام والحتم وتحديد البركات والفيوضات هو من جانبنا نحن البشر، وليس من جانب الرب الخالق القادر والمتفضّل في واقع الأمر.

ولعلّ شهر رمضان المبارك وليالي القدر الشريفة – وأوقات أخرى مميّزة قد اختصّت لتحقيق هذا الأمر – تلزم الفرد المؤمن باستثمارها، باعتبارها فرصاً ذهبيّة.

وإنّنا نلاحظ – من جانب ثانٍ – أنّ الأئمة المعصومين سلام الله عليهم كانوا حريصين أشدّ الحرص على توضيح هذه الحقائق الرائعة للناس، وليست الروايات الشريفة والأدعية المباركة المخصّصة لهذه المناسبة أو تلك إلا وسائل وآليات كسبٍ واجتذاب للمسلمين كي يدركوا شرف تلكم المناسبات والاستفادة من فضائلها لتحقيق ما يتسنى لهم من الرقيّ والتقدّم في طبيعة النظرة إلى الاستغفار والتوبة، وصقل الشخصية الإيمانيّة باتجاه الحذر من الذنوب والخطايا.

نعم؛ إنّ الوقت المحدّد ومعرفة المناسبة الخاصّة لنهل الفيوضات الربانيّة المباركة قضية مهمّة للغاية ومثمرة في الحين ذاته. ورغم أنّ الله المتعال في شهر رمضان المبارك هو نفسه الرب الوهاب في فترة ما بعد هذا الشهر الفضيل وما قبله، ولكن لموسم الصوم خصوصية وميزة غير موجودة في غيره من المواسم والمناسبات، مثله في ذلك مثل الموسم الزراعي حيث تنشر البذور في الارض، ولو أنّك نثرت أضعافاً مضاعفة من البذور في غير الموسم الخاصّ، ما أينع زرع ولا اشرأبّت نبتة.

وقد نسبت في هذا المعنى أبيات شعرية لطيفة المعنى للإمام أمير المؤمنين علي سلام الله عليه، حيث جاء فيها:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً

ندمتَ على التفريط في زمن البذر

وما إن ليوم البعث زاد سوى التقى

تزودته حتى القيامة والحشر [128]

أقول: قد يتّفق أن يفتقر المرء إلى أرض زراعيّة، أو يكون عاجزاً عن امتلاك وسائل الزراعة، فتراه لايندم على شيءٍ لأنّه يفتقر إلى أصل القضيّة، وهو القدرة على أن يكون مزارعاً، ولكن النادم الأكبر هو من تتوافر لديه جميع الإمكانات، كالأرض والبذر والماء، غير أنّه لا يحرّك ساكناً ويترك الأرض يباباً، وهو الذي يوصف بأنّه مصاب بداء التفريط المروّع.

وبما أنّ الناس لا يشبه بعضهم بعضاً، كذلك فإنّ مسؤولياتهم متفاوتة في الدنيا، وليس موقف الأب والأخ والابن على حدّ سواء في يوم القيامة، إذ كلٌّ له شأن يغنيه، وكلٌ له موقفه وموقعه الخاصّ به، ولعلّ العامل الأساسي في هذا التفاوت هو حجم الاستفادة التي اقتنصها من إمكاناته في دار الدنيا، وكذلك طبيعة أعماله التي قام بها أو لم يقم بها....

فإنّ مفهوم جملة (مثقال ذرة) كفيل بأن يؤثّر كلَّ التأثير في تحديد المصير، ولهذا أصبحت لحظة تدبّر وتعمّق وتفكّر واحدة قادرة على السموّ بالإنسان إلى منزلة وصفها النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بقوله: «انصرف الرجل وهو فقيه...» [129] .

إذاً؛ فهناك مقاطع زمنية ذات تأثير كبير ومباشر في تحديد ورسم مصير الإنسان، ومن أبرز مصاديق هذه المقاطع ليلة القدر التي بمقدور مختلف الناس أن يستثمروها حسب مستوياتهم، وما يهمّ في شأن هذه الليلة المباركة أن يعرف المحيي لها واجبه الذي عليه أن يودّيه فيها، وماذا عليه أن يحقّق في نفسه من الشروط والمؤهلات.

تزكية النفس واجب عيني

إنّ أوّل شرط لسلوك هذا السبيل هو تزكية النفس، وهي الواجب الوحيد الذي يعتبر واجباً عينياً بما للكلمة من معنى، أي أنّه لا يقبل الاستنابة والبدل، حيث لا يتصوّر إلا صدوره من الإنسان نفسه، فهو واجب شخصيّ فردي مطلق. فلا يستطيع شخص آخر النيابة به عن الآخرين، ولا يستطيع صاحبه استبداله بغيره من الواجبات والفرائض.

لذلك أصبح هذا الأمر واجباً مباشراً، بأن يضع المرء قدمه على طريق إحراز التنفّر عن المعاصي، وهذا التنفّر هو المرحلة الأولى من مراحل تزكية النفس، حيث يرتفع بها ابن آدم درجات ودرجات نحو السمو والرقي ليصل بقلبه إلى قلب ذلك العصفور، بل أشدّ منه ارتكاضاً من الذنوب.

بلى؛ إنّ الهلع من الذنب أحد العوامل التي تقصّر الطريق على ابن آدم، فتأخذ بيده من حضيض المأساة والتخلّف إلى أوج الإدراك وقمّة التفقّه والوعي.

كما أنّ إحياء وتنمية صفة العدالة في الذات عامل آخر من عوامل الرشد والتكامل الحقيقي. فإذا تمكّن المرء من تنمية هذه الملكة الرائعة في نفسه وعجن ذاته بها، ونمت فيه شجرتها الضخمه الفارعة، كان لذلك كلُّ الأثر في صياغة ملكة العدالة عنده، وعليه أن يطمئنّ إذ ذاك إلى أنّه قد خطا خطوة مهمّة وواسعة على صراط الكمال.

ولعلّ اكتساب هذه الصفة والصفات الصالحة الأخرى يتأتّى بواسطة المراس والتمرين وقراءة الأدعية وإحياء ليالي القدر المباركة، والتوجّه الخالص الى الله تعالى عبر قراءة أدعية أبي حمزة الثمالي، والافتتاح، دعاء كميل، فهذه وغيرها تهيّئ الأرضيّة المناسبة واللازمة لغرس جذور الصفات الطيّبة في ذات وروح الإنسان. وبهذه الممارسات الراقية ترتقي النفس الإنسانيّة إلى مراحل أعلى وأعلى، ذلك لأنّ العدالة – وكذلك سائر الصفات المحمودة الأخرى – ذات مراتب مختلفة ونسبية، ولهذا ترى بعض الناس (عادلاً)، بينما غيره (أعدل)، والثالث أصبح (أعدل من ذاك الأعدل).

ولاشكّ أن سعي ابن آدم نحو الإصلاح لا يصحّ أن ينحصر بزمان دون آخر، أي أن تزكية النفس لابدّ أن تشكل مع ذات ابن آدم اندماجاً جوهرياً، مع جدارة الإشارة الى أنّ شهر رمضان المبارك وخصوصاً ليالي القدر، موسم لتركيز المساعي التي لا شكّ في كونها ستصبح أكثر إثماراً، وقد قال سبحانه وتعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر) [130] بمعنى أنّ الفوائد المباشرة وغير المباشرة في هذه الليلة أفضل في واقعها وأرقى من العبادة طيلة ألف شهر.

لهذا ينبغي البحث عن أفضل وأحجى وأهمّ الأعمال في هذه الليلة، أي البحث عن أفضل المقدّمات العبادية الخاصّة بليلة القدر، من قبيل قراءة الدعاء، أو رفع المصاحف على الرؤوس، لإحراز أكبر قدر وأفضل نوع من التمهيدات التي تنتهي إلى صفاء القلوب والتوجّه التام إلى الله تعالى، ليتفضّل بعد ذلك بأحسن التقدير والقضاء والإبرام.

وقد أوصى المتقدّمون من العلماء – لمثل هذه الليلة – بالقيام بعملين لهما فائدة جمّة.

ذكر الشيخ الصدوق في كتابه الأمالي، وتبعه في ذلك العلامة المجلسي في بحار الأنوار والشيخ عباس القمّي في مفاتيح الجنان، حيث أوصوا رضوان الله تعالى عليهم بأهميّة بحث القضايا العلمية الإسلامية والخاصّة بأصول وفروع الدين في هذه الليلة المباركة، ثمّ قال الصدوق: «ومن أحيى هاتين الليلتين بمذاكرة العلم، فهو أفضل» [131] .

وطبعاً فإنّ إحياء ليالي القدر ومذاكرة العلوم المفيدة ينبغي أن يكونا بعد القيام بالعبادات التمهيديّة وإحراز وكسب الحالات الروحية.

والعمل الآخر: العبادة الخاصّة التي مارسها السيّد ابن طاووس وأوردها في كتابه القيّم (إقبال الأعمال)، وبناءً على القطع بتشرّف هذا العالم الجليل بلقاء مولانا بقية الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، فإنّ من الممكن القول بأنّ هذا النوع من العبادة الخاصّ بليلة القدر المباركة كان موضع تأييد إمام الزمان سلام الله عليه ولكن حيث كان من واجب أصحابه في زمن الغيبة التكتّم على بعض الحقائق، فإنّه لا دليل على إثبات أمر في هذا الإطار.

قال السيّد ابن طاووس رحمه الله بخصوص أعمال ليلة القدر:

لقد نظرت في نفسي وإلى ما يمكن أن يكون الأفضل بين الأعمال في ليلة القدر، حتى توصّلت إلى أنّ أفضل الأعمال في هذه الليلة هو: الدعاء للكفار والمشركين وغير المسلمين لينعم الله عليهم بنعمة الهداية.

وعلى هذا الأساس، كان السيّد ابن طاووس يرفع يديه المباركتين بالدعاء ويطلب إلى ربّه المتعال أن يهدي فلاناً المشرك أو فلاناً الكافر أو فلاناً المسيحي أو فلاناً اليهودي إلى دين الإسلام القويم.

ولعلّ هذا الدعاء بحقّ الكفّار يعقبه ثواب أكبر للشخص الداعي من الأدعية بالشفاء أو الغنا لمريضٍ أو فقير، لأنّ مرض الفرد المسلم أو فقره، أمور مؤقتة، ومن الممكن جبرها بالصحّة والثروة فيما بعد، ولكن البقاء في نيران الكفر والإلحاد الدائمة، ليس أمراً مؤقّتاً ليمكن تجاهله والتغافل عنه.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

[1] رضيّ الدين أبو نصر، الحسن بن الفضل بن الحسن، فقيه محدّث. من كبار علماء القرن السادس الهجري، ابن أمين الإسلام أبي علي الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان. انظر ترجمته في كتب رجال الشيعة.

[2] انظر مكارم الأخلاق (ط. دار الشريف الرضي، قم، 1413 هـ) ص458، الفصل الخامس، في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

[3] أبو الحسن، أو أبو الحسين: مسعود بن أبي فراس – عيسى بن أبي النجم بن حمدان بن خولان بن إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي – جدّ السيد ابن طاووس لأمّه، لقبه: ورّام. له كتاب تنبيه الخاطر ونزهة الناظر ويعرف أيضاً بـ مجموعة ورّام. راجع ريحانة الأدب للتبريزي الخياباني: ج6، ص313 – 314.

ورّام بن أبي فراس بن ورّام أبي الحسين؛ ذكره ابن طي في الإماميّة، وبالغ في إطرائه، وذكر له كرامات، لسان الميزان لابن حجر: ج 6، ص 218، رقم 763 في من اسمه ورّام.

[4] مجموعة ورّام ج2، ص51.

[5] يوسف بن أحمد بن إبراهيم الدرازي البحراني (1107 – 1186هـ) صاحب كتاب الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة فقيه محدّث، من معاصري الوحيد البهبهاني. صلّى البهبهاني على جنازته. وقد دفن في الحرم الطاهر لسيد الشهداء الإمام الحسين سلام الله عليه.

والكتاب المذكور عبارة عن دورة فقهية نصف استدلالية طبقاً للآيات والروايات تميل إلى المنحى الأخباري. راجع ريحانة الأدب ج3، ص360 – 361؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة للطهراني: ج6، ص289 – 290.

[6] الميرزا حسين بن محمد تقي بن محمد علي النوري الطبرسي (1254 – 1320هـ) المدفون في الصحن الرضويّ المقدس. فقيه، محدّث، مفسّر، رجاليّ، من كبار علماء الإماميّة في مطلع القرن الرابع عشر، وهو من تلامذة الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري والملاّ علي كني والمجدّد الشيرازي، ومن مشايخ الأغا بزرك الطهراني والشيخ عباس القمّي.

وهو صاحب كتاب مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل الذي علاوة على تضمّنه زهاء (23000) حديث طبقاً لترتيب أبواب كتاب وسائل الشيعة فإنّه حوى ترجمة عدّة عديدة من علماء الشيعة. راجع الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج11، ص7 – 8.

[7] محمد حسن بن باقر عبد الرحيم الشريف الأصفهاني (1266 هـ) من كبار علماء الإمامية، ومن تلامذة السيد جواد العاملي صاحب موسوعة مفتاح الكرامة والشيخ جعفر كاشف الغطاء. وقد جاء في كتابه جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام على جميع فروع الفقه بالأدلة الدقيقة، حتى قيل: إنّ جواهر الكلام بالنسبة إلى الفقه كنسبة بحار الأنوار إلى الأحاديث. راجع ريحانة الأدب ج3، ص357 – 358.

[8] السيد محمد كاظم بن السيد عبد العظيم الطباطبائي (1347 – 1337هـ) شرع في طلب العلم على المرحوم ملا محمد إبراهيم الأردكاني والمرحوم الآخوند زين العابدين العقدائي، والسطوح الأعلى على المرحوم الآخوند ملا هادي في يزد. ثمّ هاجر إلى العراق فأخذ عن الآيات العظام المرحوم الميرزا الشيرازي والشيخ راضي ابن الشيخ محمد الجعفري (فقيه العراق) وغيرهم. وبعد هجرة الميرزا الشيرازي إلى سامراء، شكّل المرحوم السيد حلقة دراسية وُصفت بأنّها أوسع وأسدّ، وأنفع من أكثر مدارس فقهاء عصره، وفضلاء مصره، وبقي في النجف حتى توفّي فيها. انظر ترجمته في مقدّمة العروة الوثقى ط. مؤسسة النشر الإسلامي: قم، ج1، ص5.

[9] رضيّ الدين أبو القاسم، عليّ بن موسى بن جعفر (589 – 664 هـ) المعروف بالسيد ابن طاووس، فقيه، متكلّم، محدّث، مؤرّخ، أمّه ابنة الشيخ ورّام بن أبي فراس الحلّي. وأمّ أبيه ابنة الشيخ الطوسي. غادر مسقط رأسه الحلّة إلى بغداد بعد سنين من طلب العلم، وأقام فيها خمسة عشر عاماً، ثم عاد إلى الحلّة، ثم إلى النجف وكربلاء وسامرّاء والكاظمين، وعاد إلى بغداد في أيّام سلطة المغول. وقد عاصر خليفتين من بني العباس هما المستنصر والمستعصم، وكانت لديه علاقات جيّدة مع المستنصر وعرضت عليه في زمن المستنصر مسؤوليّات متفاوته إلاّ أنّه لم يقبل أيّ منصب اقتُرح عليه، ولكنّه بذل جهوداً جبّارة لحفظ العراق من دمار المغول. وعُرف عنه القول لهولاكو بأنّ الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم. ثم إنّه قبل نقابة العلويين على كرهٍ إلى آخر عمره الشريف. توفّي في بغداد ودُفن في النجف الأشرف. راجع كشف المحجّة بأكمله، ففيه ما يغني.

[10] فلاح السائل ص75 في ذكر صفة القبر.

[11] أبو القاسم، نجم الدين جعفر بن الحسن بن أبي زكريا يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي الحلّي (676 هـ) مدفون في الحلّة في شارع يحمل اسمه. من مفاخر علماء الإماميّة، هو المحقق على الإطلاق دون ذكر القرينة، وذلك رغم كثرة المحقّقين وفحول العلماء. من معاصري نصير الدين الطوسي. من تلامذته: السيد محمد رضيّ الدين عليّ بن طاووس، وابن داود، والعلاّمة الحلّي ابن أخته. له تصانيف عدّة، من أشهرها: شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام؛ المعتبر في شرح المختصر طبعا مراراً. راجع ريحانة الأدب ج5، ص231 – 236.

[12] جمال الدين، أبو منصور الحسن بن سديد الدين يوسف بن علي المطهّر الحلّي (648 – 724 هـ) من أعاظم علماء الإماميّة. وقصّة مناظرته مع علماء المذاهب الأربعة في قضيّة الطلاق عند السلطان محمد خدابنده معروفة، إذ تشيّع هذا الأخير ببركة المناظرة. ولمزيد من التعرّف على ترجمة العلاّمة وتصانيفه يراجع كتاب طرائف المقال للبروجردي: ج2، ص434، ترجمة العلاّمة الحلّي.

[13] بهاء الدين محمد بن الحسن بن محمد الأصفهاني (1062 – 1135 هـ) المدفون في أصفهان. من أفاضل علماء أواخر العهد الصفوي، لقّب بالفاضل الهندي رغم عدم رغبته في ذلك، لهجرته أيّام شبابه برفقة والده إلى الهند. من تأليفاته: كشف اللثام عن قواعد الأحكام وهو شرح لكتاب قواعد الأحكام للعلاّمة الحلّي. راجع ريحانة الأدب ج4، ص284 – 285.

[14] رضا بن محمد هادي الهمداني (1250 – 1322 هـ) من فقهاء الإماميّة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري. من تلامذة المجدّد الشيرازي. راجع ريحانة الأدب ج6، ص377.

[15] عين الحياة ص19.

[16] هو ظالم بن عمرو يكنّى أبا الأسود الدؤلي الذي أنشأ الأعلم النحو بوصية من أمير المؤمنين سلام الله عليه لما كان من فساد المولّدين فقال سلام الله عليه له: فاجمع في علم الإعراب شيئاً. انظر الأنساب للسمعاني: ج5، ص467، مادّة النجوى.

ولقد كتب سيرة هذه الشخصية العملاقة أُمّهات الكتب في التاريخ والسير والتراجم لعموم المسلمين، بالإسهاب تارة والإيجاز أخرى؛ نظراً لما لهذه الشخصية من تاريخ مشرّف. امالي الصدوق المجلس73، ص479 والكليني في الروضة مؤاخاة الأنصار والمهاجرين.

[17] مكارم الأخلاق ص458، الفصل الخامس، في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه.

[18] جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري، يقال: جندب الخير، له صحبة. كنيته: أبو عبد الله. هو أحد الأركان الأربعة سلمان والمقداد وعمّار وهو رابعهم، وقيل في اسمه واسم أبيه غير ذاك، إلاّ أنّ المشهور به هو ما قدّمناه (جندب بن جنادة). زاهد، صادق اللهجة، مات في زمن عثمان بعد ما نفاه إلى الربذة حتى قضى وحيداً غريباً، فقام بغسله ودفنه جماعة من العراق بمعيّة مالك الأشتر. انظر: رجال الطوسي ص32 باب الجيم؛ نقد الرجال للتفرشي: ج1، ص273 رقم 1061/3.

[19] أكرم به: من أفعال التعجّب، ويستخدم في مقام التعظيم.

[20] أورد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كلمة (منّا) على سبيل المجاز احتراماً وتقديراً لعظيم منزلة أبي ذر واقترابه الشديد من مصداق الحقّ الأساس وهم أهل البيت الأربعة عشر، وهم الذين حصرتهم الآية القرآنيّة الشريفة القائلة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً) فهو منهم مجازاً ومن باب التوسعة للمعنى، دون أن يكون منهم على سبيل المصداق الحقيقي والواقعي.

[21] ورد في كتب البلاغة أن الإنسان إذا ما كان له تعلّق بشخص، فله أن يعبّر عن ذلك بتكرار اسمه ومناداته كراراً.

[22] أبو الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، توفي عام (329 أو 328) من علماء الإماميّة في فترة الغيبة الصغرى، مدفون في قم المقدّسة. كان والده ممّن رأى وصاحَب الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما الصلاة والسلام. ولعظيم وثاقته صرّح الشهيد الأوّل والشيخ البهائي والعديد من العلماء الفطاحل بأن فتاواه بمنزلة نصّ المعصوم لدى علماء الإماميّة. راجع ريحانة الأدب ج7، ص401 – 402.

[23] سورة الأنفال، الآية: 42.

[24] أي ضعفان من الأجر والثواب.

[25] عن أمير المؤمنين سلام الله عليه: لقاء أهل المعرفة عمارة القلوب ومستفاد الحكمة.

وروي أيضاً: زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جثواً على الركب. تحف العقول ص393.

[26] بحار الأنوار ج85، ص226.

[27] سورة الذاريات، الآية: 56.

[28] علل الشرائع ج1، ص20.

[29] علل الشرائع ج2، باب الصبر، ص87.

[30] نهج البلاغة ج1، ص14، الخطبة الأولى.

[31] سورة العنكبوت، الآية: 45.

[32] التهذيب ج3، ص108 (دعاء الإفتتاح الخاص بشهر رمضان المبارك).

[33] نفس المصدر.

[34] لاشكّ أنه لا ينبغي الاقتصار على هذا التقسيم واعتباره تقسيماً نهائياً، ذلك لأنّ ثمّة أقساماً ومراتب عبادية أخرى يمكن تصوّرها وتحديدها.

[35] مستدرك الوسائل ج3، ص109. باب جواز الصلاة في أول الوقت.

[36] بحار الأنوار ج67، ص186.

[37] محاسبة النفس للكفعمي: ص169.

[38] سورة النساء، الآية: 150.

[39] سورة النساء، الآية: 151.

[40] بحار الأنوار ج78، ص170، باب: فضل العافية والمرض.

[41] المصدر نفسه.

[42] مغني اللبيب ج2، ص393.

[43] أمالي الصدوق ص633، المجلس الثاني والتسعون.

[44] بحار الأنوار ج16، ص225، باب9، مكارم أخلاقه وسيره وسننه.

[45] مكارم الأخلاق ص24.

[46] الكافي ج2، ص440، ح2.

[47] اللهوف في قتلى الطفوف ص193.

[48] سورة النساء، الآية: 40.

[49] التهذيب ج6، ص338، باب المكاسب.

[50] الحدائق الناضرة للمحقق البحراني: ج18، ص119.

[51] المصير: النهاية، المحل الذي ينتهي عنده مسير المياه.

[52] بحار الأنوار ج6، ص275، باب8، أحوال البرزخ والقبر وعذابه.

[53] السيّد حسين القمّي بن محمود الطباطبائي القمّي الحائري، أحد مراجع التقليد في عصره، ولد سنة (1282 هـ) درس في طهران ثم سامراء على الميرزا الشيرازي الكبير، ثم عاد إلى طهران وتتلمذ على الميرزا محمد حسن الآشتياني، ثم هاجر إلى النجف الأشرف حيث آلت إليه المرجعيّة الدينيّة بعد المرحوم السيّد أبي الحسن الأصفهاني، حتى توفّي سنة (1366 هـ).

[54] آية الله السيّد محمد هادي الميلاني التبريزي، أحد أكبر مراجع الشيعة، كان مقيماً في مدينة مشهد المقدّسة، وتوفي فيها سنة (1395 هـ) كان رحمه الله مشهوراً بحدّة الفهم وقوّة الذاكرة.

[55] الميرزا الأصفهاني، هو أحد مؤسّسي مدرسة التفكيك، درس أوّلاً في النجف الأشرف ثم اشتغل بالتدريس فيها، ثم سافر إلى مشهد المقدّسة، ليقيم فيها ويعلن مخالفته الشديدة للفلسفة حتى سرى ذلك إلى كيان الحوزة العلمية في مشهد المقدّسة إلى يومنا هذا.

[56] أنظر أمالي الصدوق ص409، ح11، المجلس53.

[57] العثرة: السقطة المفاجئة، ويقال للحرب والجهاد عثرة، لكثرة السقوط. (المنجد مادّة: ع ث ر)

[58] الصرعة: السقطة القاتلة التي لا قيام منها.

[59] ولاّه الحاكم الأمويّ عبد الملك بن مروان مكّة والمدينة والطائف والعراقَين – البصرة والكوفة – أسّس مدينة واسط، شرق الكوفة عند دجلة، وكان – باتفاق المؤرّخين – طاغية دموياً يضرب به المثل. كما كان عدوّاً لأتباع أهل البيت سلام الله عليهم وقتل منهم ما لا يحصى. الأعلام للزركلي: ج2، ص168.

[60] مدينة المعاجز للبحراني ج5 ص307 ح65 الباب6، من معاجز الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد سلام الله عليهما.

[61] يبعث على النسيان.

[62] الدجّال بمعنى الكذّاب، وأصل الكلمة سرياني (أزجل) وعُرّبت فأصبحت: دجّال.

[63] الفقر غالباً ما يؤدّي إلى ضيق الصدر، ونسيان المرء لنفسه ولواجباته. ومن هنا عبّر عنه صلى الله عليه وآله بكون الفقر منسياً، أو أن بالفقر يُنسى الفقير، إذ عادة ما يكون الفقير منسيّاً في الوسط الاجتماعي، فتراه يعجز عن تقديم الخير لهم، بعد أن فقد العلاقة الطبيعية معهم.

[64] شَحَّ بالشيء: بخل به ومنعه.

[65] الصحيح من السيرة للعاملي: ج3، ص33، من أهداف الإسراء والمعراج.

[66] الطرائف لابن طاووس: ص505.

[67] السفسطائيون: جماعة ظهرت في اليونان من أهل الرأي في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، ولم يكن همّهم إماطة اللثام عن الحقائق بقدر اهتمامهم على تعليم تلامذتهم فنّ من الجدل والمناظرة، ليتمكّنوا في مختلف المواقع والحالات – ولاسيّما في الحوارات السياسية – من التغلّب على خصومهم، بعيداً عن كونهم على صواب أو على خطأ.

[68] إقبال الأعمال ص637.

[69] وسائل الشيعة ج12، ص8، باب وجوب عشرة الناس حتى العامة.

[70]، وقال صلّى الله عليه وآله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». التهذيب ج6، ص136، باب أصناف من يجب جهاده.

[71] الكنى والالقاب للشيخ عباس القمّي: ج3، ص 144.

[72] إنّ مفردة (ظن) تعتبر من الأضداد في اللغة. ورغم أنّ الظنّ من حيث المعنى يخالف اليقين، إلا أنّه في هذه الجملة قد يعطي معنى اليقين، أي أنّ عمر كان يقصد القول بأنّ الإمام سكران على وجه اليقين، والعياذ بالله.

[73] انظر الكافي ج1، ص496، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي.

[74] وقد نقل أنّ المرحوم الشيخ الأنصاري أورد العبارة المذكورة في معرض إجابته على قول أحدهم: أن يكون المرء عالماً فذاك أمر مشكل، وأن يكون المرء إنساناً فذاك من المحال، فأكّد الشيخ بأنّ هذا الرأي يجانب الصواب، بدليل أنّ كثيراً من الناس قد حقّقوا معنى الإنسانيّة في أنفسهم، فإن كان هذا الأمر محالاً، فكيف تسنّى لهم ذلك؟

[75] لاشكّ أنّ الأنبياء والأئمّة سلام الله عليهم مستثنون من هذه القاعدة، وهم خارجون تخصّصاً، لأنّهم يرتبطون بالعلم الإلهي مباشرة.

[76] سورة آل عمران، الآية: 164.

[77] إقبال الأعمال ص657.

[78] سورة آل عمران، الآية: 159.

[79] نهج البلاغة الكلمة333، ص533.

[80] مجموعة ورّام ج1، ص89.

[81] انظر: تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج5، ص33، تفسير سورة التوبة، الآية 26.

[82] انظر: الخرائج والجرائح للراوندي: ج1، ص162، ح252.

[83] الكافي ج8، ص127.

[84] سورة النساء، الآية: 165.

[85] البرنس: قلنسوة طويلة، وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام. لسان العرب لأبن منظور: ج6، ص26، «مادّة برنس».

[86] الكافي ج2، ص314، ح8.

[87] لا يحكم بالفسق لارتكاب أيّ ذنب كان، ولكن يقال فاسق لمن يتعمّد عدم الاهتمام بأحكام دينه.

[88] بحار الأنوار ج96، ص316.

[89] سورة طه، الآية: 7.

[90] تحف العقول ص301، وصيّته عليه السلام لعبد الله بن جندب.

[91] سورة الرعد، الآية: 31.

[92] بحار الأنوار ج93، ص356، باب46.

[93] للحبس حدود، والحبس هنا بمعنى عجز الشيطان عن قصدنا، إن لم تقصده النفس والشهوة، وإلا فهو عاجز عن القيام بأيّ عمل. فالإنسان بذاته هو الذي يرتكب المعصية في شهر رمضان وغيره بسبب غلبة الشهوة والنفس الأمّارة بالسوء.

[94] الخصال ص209، ح31.

[95] إنّ القول بنوع هذا الوحي أمر جدير بالتحقيق، أكان وحياً خاصّة بهذا العابد، أم هو نوع الوحي الطبيعي الذي كان يحدث في فترات ما قبل الإسلام.

[96] الكافي ج2، ص73، ح3، باب الاعتراف بالتقصير.

[97] وسائل الشيعة الحر العاملي: ج1، ص8.

[98] سورة ابراهيم، الآية: 34.

[99] الكافي ج2، ص429، ح4، باب من يهمّ بالحسنة أو السيئة.

[100] سورة هود، الآية: 114.

[101] لقد رأى زملاء الشيخ الأنصاري رحمه الله إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف جالساً إلى جانب الشيخ، ولكنّهم لم يتعرفوا إليه بادئ الأمر، ثمّ حينما أمرهم بأن يتعاملوا كتعامل الشيخ الأنصاري، وأنه هو الذي سيبادر إلى زيارتهم... لم يتنبهوا إلى حقيقة القصد من هذا الوعد وشخص الإمام، إلا بعد مغادرته دكّان الشيخ وافتقادهم إياه، رغم أنّهم قد خرجوا للبحث عنه...

[102] بحار الأنوار ج8، ص284.

[103] الوصيّة من العقود الجائزة ولا تنضوي تحت قاعدة (أوفوا بالعقود)، لاسيّما كون الموصي على قيد الحياة، أي أنّ للفرد أن يغيّر وصيّته مراراً.

[104] بحار الأنوار ج2، ص89، باب14: من يجوز أخذ العلم منه.

[105] أبو بحر، أبو القاسم، الحسين بن روح، من متكلّمي الشيعة في العهد العباسي، ينسب له كتاب التأديب وهو ثالث النواب الخاصّين للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في زمن الغيبة الصغرى. وقد اتّهمه العباسيون بالتعاون مع القرامطة وسجنوه طيلة الأعوام (312 – 317 هـ) وتوفّي في بغداد عام (326 هـ). راجع ريحانة الأدب للتبريزي: ج2، ص337 – 338.

[106] أبو جعفر، محمد بن علي المعروف بابن أبي العزاقر، من أهل شلمغان من قرى واسط، توفّي سنة (322 هـ). كان مرجعاً للشيعة في بادئ الأمر، ولكنّه أعلن معارضته لنيابة الحسين بن روح، وكان ذلك بين أعوام (304 – 311 هـ) واستمرّ على تلك الحال حتى ادعى النبوّة والألوهيّة. سافر إلى بغداد والموصل وجمع له مؤيّدين، سمّوا فيما بعد بالعزاقريّة أو الشلمغانيّة. أعدم الشلمغاني بأمر الحاكم العباسي، ثمّ صلب جسده وأحرق. راجع ريحانة الأدب ج3، ص235 – 236.

[107] (الشياطين مغلولة): أمالي الصدوق ص93، المجلس العشرون.

[108] عيون أخبار الرضا سلام الله عليه للصدوق: ج2، ص266، ح53.

[109] الخصال الصدوق ص113 ح91.

[110] أبو الحسن، علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، من علماء ومحدّثي الإماميّة، ومن مشايخ الكليني في الحديث، وقد روى عنه الشيخ الصدوق بواسطة أحمد بن علي – ولده – من تصانيفه: اختيار القرآن؛ الأنبياء؛ التفسير؛ التوحيد والشرك؛ المناقب؛ قرب الإسناد. توفي سنة (307 هـ). راجع ريحانة الأدب ج4، ص488.

[111] أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني الرازي، المعروف بثقة الإسلام، توفي سنة (329 هـ) من أهالي كلين؛ قرية قرب حسن آباد من توابع الرّي حيث مدفن أبيه فيها ومورد اهتمام المؤمنين وزيارتهم. هو رأس المحدّثين الإماميّة، ثقة عدل ثبت، وهو أحد المحمّدين الثلاثة ومؤلف كتاب الكافي من كتب الشيعة الأربعة، ويعدّ الكليني أوّل محدّث إمامي اهتمّ واختصّ بجمع ونظم وتبويب الروايات والأحاديث الدينيّة الشريفة. راجع ريحانة الأدب ج5، ص70 – 82.

[112] الشيخ مرتضى الأنصاري، قمّة رفيعة في الفقه والزهد والتقوى، ولد في يوم عيد الغدير سنة (1214 هـ) في مدينة دزفول. بدت عليه ملامح النبوغ والعبقرية منذ نعومة أظفاره. هاجر إلى العراق حيث العتبات المقدسة كان عمره آنئذ ثمانية عشر عاماً لطلب العلم، ثمّ توجّه لزيارة مرقد الإمام علي الرضا سلام الله عليه في خراسان عام (1240 هـ) ومكث فيها ست سنين. وتتلمذ في مدن مشهد وإصفهان وكاشان ويزد على الحكيم الربّاني الملاّ هادي السبزواري والملاّ أحمد النراقي. ثم عاد إلى النجف الأشرف عام (1249 هـ) حيث أصبح المرجع الأعلى في النجف الأشرف لمدة خمسة عشر عاماً.

وقيل إنّ السلطان العثماني سأل واليه في العراق عن أحوال الشيخ الأنصاري، فأجابه قائلاً: والله، هو الفاروق الأعظم... بينما نقل عن السفير البريطاني في العراق أنّه قال: والله إنّه – الشيخ الأنصاري – إما أن يكون السيد المسيح أو أحد حوارييه.

توفّي الشيخ الأعظم وأوحد زمانه في ليلة الثامن عشر من جمادى الثانية عام (1281 هـ) والتحق بالرفيق الأعلى ودُفن إلى جوار مرقد مولانا ومولاه الإمام علي سلام الله عليه. راجع (زندگانى وشخصيت شيخ أنصارى وآشنايى با متون درسى حوزههاى علميه ايران: شيعة، شافعي، حنفي – بالفارسية – ص226).

[113] سورة آل عمران، الآية: 97.

[114] الكافي ج2، ص69، ح8.

[115] تجدها في شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد: ج11، ص145، خطبة رقم 216.

[116] أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى الرضي العلوي الحسيني الموسوي، المشهور بالسيد والشريف الرضي (359 – 406 هـ) أديب وشاعر وفقيه ونابغة زمانه، هو أخو السيد المرتضى علم الهدى. قالوا عنه في (يتيمة الدهر) للثعالبي و(رجال الكشي) إنّه يعود في النسب إلى الإمام موسى بن جعفر سلام الله عليهما. وعرف على أنّه أنبه شعراء العرب، ويصفه أرباب التراجم بأنّه نابغة زمانه، له تصانيف عدّة، ولكن (نهج البلاغة) أشهرها على الاطلاق.

[117] عزّ الدين أبو حامد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، (586 – 656 هـ) أديب ومؤرّخ وفقيه ومن كبار المعتزلة، ورغم أنّه شافعي في الفروع ومعتزلي في الأصول، إلا أنه يعتبر من محبّي أهل البيت سلام الله عليهم ومقرّاً بأحقيّة الإمام علي سلام الله عليه. وقد نسب بعضهم نسبته إلى أهل السنّة كنسبة عمر بن عبد العزيز إلى الأمويين. طبعت موسوعته (شرح نهج البلاغة) مراراً في مصر وإيران ولبنان والعديد من البلاد الإسلاميّة. كان

إبان حياته مورد عناية ابن العلقمي، روى عنه العلامة الحلي بطريق أبيه؛ سديد الدين يوسف، راجع ريحانة الأدب ج7، ص333 – 336؛ أعلام الزركلي ج3، ص289.

[118] راجع شرح نهج البلاغة ج11، ص153، ضمن شرح الخطبة رقم 216.

[119] شرح نهج البلاغة ج11، ص153، ضمن شرح الخطبة رقم 216.

[120] سورة التكاثر، الآية: 2.1.

[121] نهج البلاغة الخطبة رقم212.

[122] عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمّي؛ المحدّث الإمامي، ولد في مدينة قم المقدّسة وتعلّم فيها العلوم الحوزويّة. قصد النجف الأشرف سنة (1316هـ) ولازم فيها الحاج الميرزا حسين النوري ودرس عليه الفقه والأصول والتفسير والحديث والكلام، وأجازه، وعاد إلى قم عند وفاة الميرزا سنة (1320 هـ) وانشغل بالتأليف والتحقيق. وله: مفاتيح الجنان وسفينة البحار؛ ومدينة الحكم والآثار؛ ومنازل الآخرة؛ ومنتهى الآمال في مصائب النبي والآل؛ وتصانيف أخرى. راجع ريحانة الأدب ج4، ص487 – 488.

[123] الملا عباس التربتي، ولد سنة (1251 هـ) في قرية كاريزك من نواحي تربت حيدرية (في محافظة خراسان). كان عالماً صالحاً وصاحب مقام علميّ وعمليّ، قضى حياته في قمّة الزهد والتقوى حتى توفي عام (1322 هـ).

[124] حسين علي الراشد. ولد عام (1284 هـ) في مدينة تربت حيدريّة في قرية كاريزك في أسرة روحانيّة. يمّم شطر مدينة مشهد المقدّسة مع والده لمواصلة دراسته الدينية عام (1300 هـ) وتتلمذ على الأديب النيشابوري والحاج الشيخ محمد النهاوندي والحاج حسين القمي. كانت خطابته الأولى في مدينة شيراز. فسبق جميع زملائه الخطباء المنبريين في مدّة حياته. ثمّ سافر إلى طهران حيث انشغل بالتأليف والوعظ والإرشاد، حتى منع من ارتقاء المنبر سنة (1320 هـ ش) وتوفي سنة (1358 هـ ش) عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد إصابته بسكتة دماغيّة.

[125] أحد مساجد الروضة الرضوية المقدّسة.

[126] بحار الأنوار ج5، ص303، باب: مَنْ رُفع عنه القلم، ح13.

[127] الكافي ج2، ص287، باب الاستغفار من الذنوب.

[128] ديوان الإمام علي سلام الله عليه ص210.

[129] روي في بحار الأنوار أنّ رجلاً قصد النبي صلى الله عليه وآله ليعلّمه مبادئ الإسلام، فأحاله النبي صلّى الله عليه وآله على أحد أصحابه ليعلّمه القرآن، فكان أوّل ما علّمه سورة الزلزلة المباركة، وحينما بلغ قوله تعالى:(فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره) قال الرجل: يكفيني، وقام مغادراً، فقيل له: بقي الكثير ممّا تتعلّمه، فقال: لقد تعلّمت ما جئت لأتعلّمه واتضحت لي الحقيقة. فقال النبي الأكرم يصف هذا الرجل الذي استوعب في لحظة واحدة ما كان يتوقع أن يستغرق تعلّمه سنين: «انصرف الرجل وهو فقيه». بحار الأنوار ج89، ص107، باب: فصل التدبر في القرآن.

[130] سورة القدر، الآية: 3.

[131] أمالي الصدوق ص649، المجلس الثالث والتسعون.